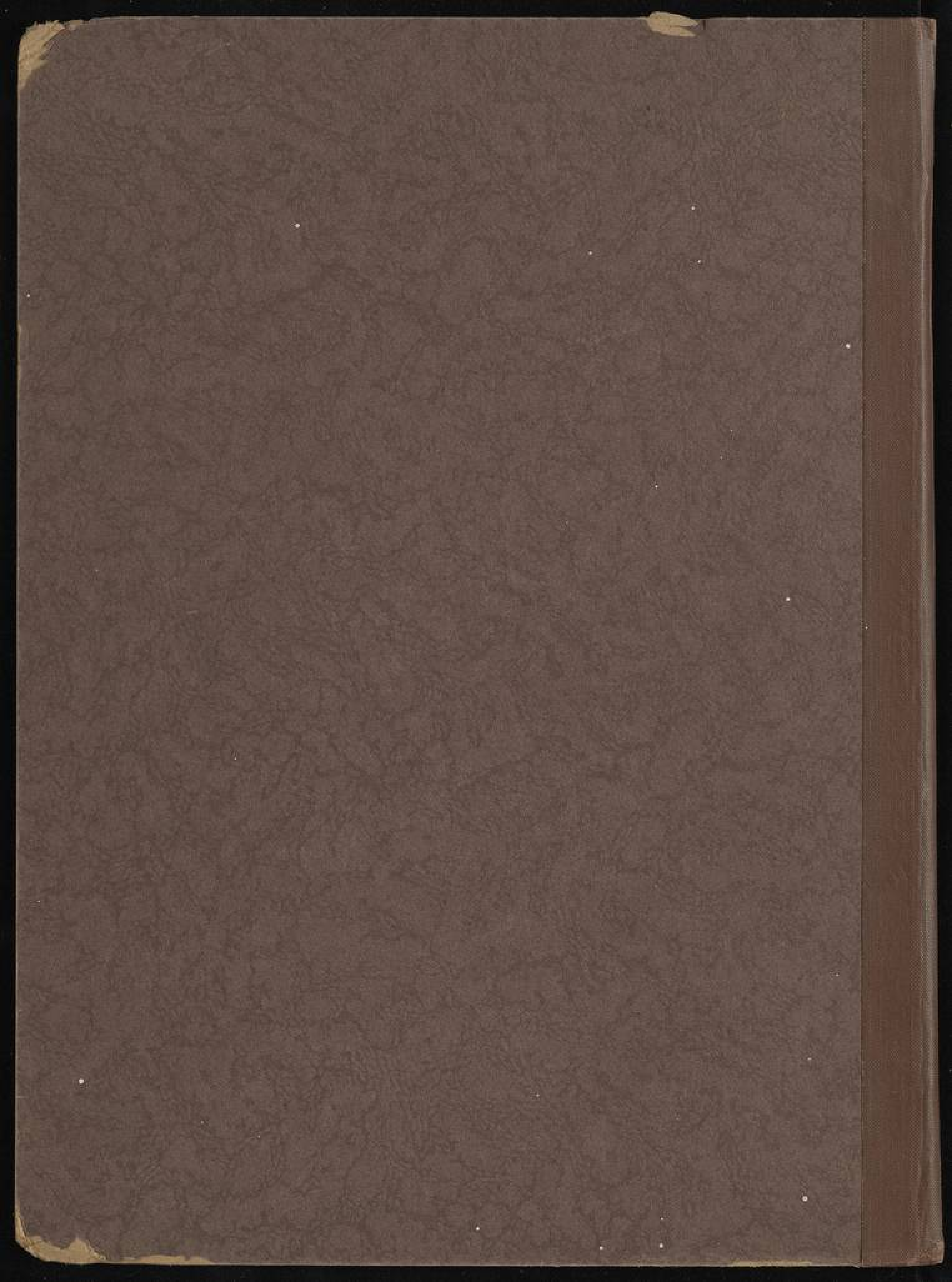
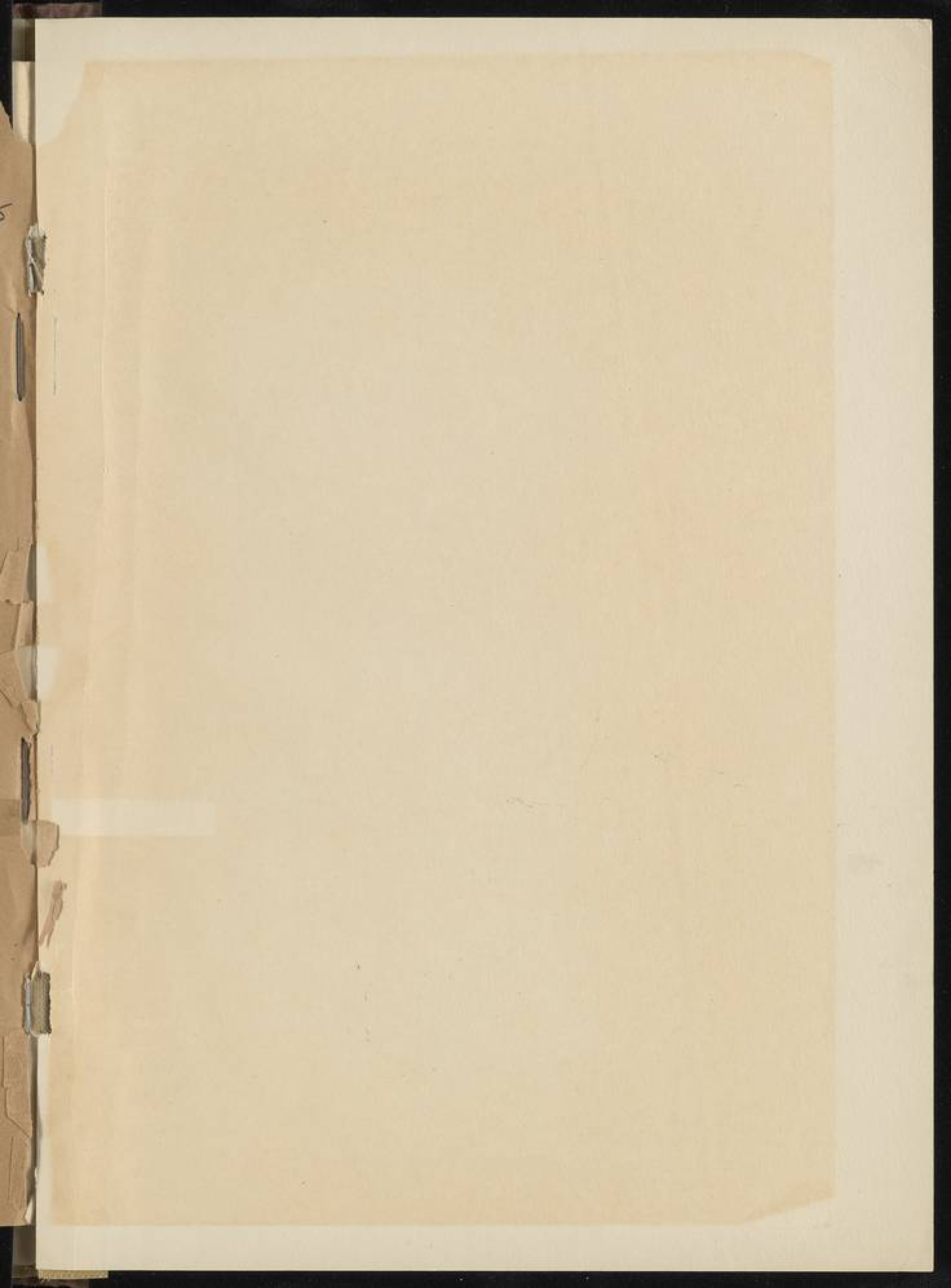



SIGILLVM · COLLEGII · COLVMBIAE · NOVI · EBORACI







كليـة الآداب

ثورات البربر فى افريقية والأندلس

بين سنتى ١٠٢ – ١٣٦ هـ (٧٢١ – ٧٥٣ م)

بقلم

الدكتور حسين مؤنس

فصلة من مجلة كلية الآداب
العدد العاشر ، المجلد الأول – مايو سنة ١٩٤٨

مطبعة جامعة فؤاد الأول
١٩٤٨

ثورات البربر

فى إفريقيــة والأندلس

بين سنتى ١٠٢ — ١٣٦ هـ (٧٢١ — ٧٥٣ م)

للدكتور حسين مؤنس

تمهيـد

أتم العرب فتح المغرب حوالى سنة ٨٢ هـ . بعد أن قضى حسان بن النعمان على مقاومة الكاهنة وأنصارها، وبدأوا يضعون لهذا القطر الفسيح نظامه الأسلامى الجديد ، بعد قرابة سبعة وستين عاما من الحرب والكفاح مع الروم تارة ومع البربر تارة أخرى . ولا نزاع فى أن حسان بن النعمان كان قادراً على أن يوجه السياسة الأسلامية فى المغرب توجيهاً حسناً ، فقد وضع من القواعد الادارية والنظم العمرانية ما كان كفيلا — لو استمر — بأن يهيء المغرب الاستقرار المنشود بعد عصور طويلة من الاضطراب والحروب . ولكن الظروف لم تمهل حسان إلا قليلا ، لأن عبد العزيز بن مروان عامل مصر لأخيه عبد الملك كان يطمع فى المغرب لنفسه ، وكان لا يستريح إلى حسان ، فلم يزل به حتى عزله فى أواخر سنة ٨٥ هـ ، واستبدل به مولاه موسى بن نصير .

ولا نزاع فى أن موسى كان رجلا نشيطاً قادراً ، ولا نزاع كذلك فى أنه كان محارباً ماهراً ، استطاع أن يقود جيوش المسلمين فى حروب موفقة فى المغرب أولا ثم فى الأندلس فيما بعد ، ولكنه لم يكن بالمنظِّم الدقيق ولا الخبير بسياسة الشعوب ، فبدلا من أن ينفق وقته فى المغرب فى تنظيم أمور البلاد وكسب قلوب أهلها للدولة الجديدة والدين الجديد ، مضى يحارب البربر ويرميهم بالجيش بعد الجيش حتى روعهم وشككهم فى مرامى الحكم الأسلامى .

وانصرفت همته إلى المغانم والسبي ، وأسرف في ذلك إسرافاً أنكره منه العرب أنفسهم [1] ، وريع منه البربر فجعلوا يتركون مساكنهم ويتهاربون أمامه ، واضطر معظمهم إلى الاستئمان وبذل الطاعة عن رهبة ومضى على ذلك هو وبنوه عبد الله وعبد العزيز ومروان وكبار رجاله قرابة السنوات العشر أصابوا خلالها من المغانم والسبي ما لم يسمع المسلمون بمثله قبل ذلك وما فاق ما غنمه المسلمون من فارس وغيرها من الأقاليم التي فتحت خلال القرن الأسلامي الأول.

وعاد موسى إلى المشرق في أواخر سنة ٩٥ﻫ . وأقام ابنه عبد الله بن موسى في المغرب أميراً مكان أبيه ، فمضى على سيرته حتى ضج أهل البلاد ، وبدأت نفوسهم تميل الى الثورة ، فعزله سليمان بن عبد الملك وولى مكانه محمداً بن يزيد القرشي [2] وحذره من سياسة العسف والأرهاق التي سار عليها آل موسى ورجالهم ، وقال له : « يا محمد ! اتق الله وحده لاشريك له ، وقم فيما وليتك بالحق والعدل ، فاللهم اشهد ! [3] » وهي وصاة تدل على أن سليمان كان يشعر تمام الشعور بأن آل نصير قد ساروا في المغرب بسيرة لاتحمد مغبتها ، وأنه كان يريد أن يوجه حكم البلاد توجيهاً جديداً . ولم يستطع محمد بن يزيد أن يصلح من الأمر كثيراً لأن مساءات آل موسى كانت قد غرست في نفوس البربر لوناً من النفور من الدولة الجديدة جعلهم لايكادون يطمئنون الى أحد ، ثم ان ولاية محمد بن يزيد لم تطل ، فعزل عن البلاد بعد عامين (٩٧ — ٩٩ ﻫ) لم يكد يخلف خلالها في البلاد أثراً يذكر [4] .

ولم يستطع أحد ممن خلف محمد بن يزيد من عمال بني أمية إزالة هذا الأثر السيء أو توجيه الحكم الأسلامي في المغرب توجيهاً حسناً لعدة أسباب : أهمها

---

(١) «حدثنا عبد الملك بن مسلمة .. أن موسى بن نصير حين غزا المغرب بعث ابنه مروان على جيش فأصاب من السبي مائة ألف ، وبعث ابن أخيه في جيش فأصاب مائة ألف ... فلما أتى كتابه بذلك (الى الوليد) قال الناس : ابن نصير والله أحمق ! من أين له عشرون ألفاً يبعث بها الى أمير المؤمنين في الخمس ؟ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٤ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ١ ص ٢٢ — ٢٣

(٣) النويري ، نهاية الارب ، ج ١ ص ٣١

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٤

أن الخلفاء اعتادوا من عمال إفريقية كثرة الهدايا والألطاف والأموال ، ولم يستطيعوا الامتناع عن الالحاح على العمال فى طلبها ، وأن أمر الأمويين فى المشرق أخذ يضطرب بعد خلافة عمر بن عبد العزيز ، ولم يعودوا يستطيعون الاشراف على أمور الحكم فى الولايات الاشراف الواجب ، وأن الحروب الأهلية فى المشرق بين بنى أمية والزبيريين والخوارج قد امتد شررها إلى الولايات، إذ كان أعداء بنى أمية يفرون إلى الولايات – المغرب والأندلس خاصة – ويجتهدون فى إثارة قلوب أهلها على بنى أمية وتأليبهم على الدولة الأموية ، وأنَّ فتح الأندلس على يد البربر خاصة قد رفع روحهم المعنوية وأظهرهم على قوة أنفسهم ، فلم يعودوا يحتملون من العرب عسفاً ولا سوء إدارة . واجتمعت هذه العوامل كلها وأخذت تدفع البربر إلى الوثوب على العرب دون أن يفطن هؤلاء إلى هذا التطور النفسى الخطر الذى كان يجرى فى افريقية مع توالى السنين .

وكان طبيعياً بعد ذلك أن تندلع نيران الثورة فى المغرب كله بعد سنوات ، وكان طبيعياً أيضاً أن يكون اندلاعها من القوة والشمول بحيث امتدت كالنار فى الهشيم من طرابلس إلى البرانس ، ولم يستطع العرب وقف تيارها رغم مابذلوا من جهود ، وانتهى الأمر بعد كفاح طويل إلى لون من الهدنة بين العرب والبربر فى نهاية العصر الأموى . نقول هدنة ولا نقول هدوءاً ، لأن الواقع أن العداوة ظلت قائمة بين الجيين ، ولم تخمد نيرانها ، حتى انتهت بخروج المغرب عن طاعة الدولة المركزية جملة فى عصر الأغالبة .

لهذا لا غرابة أن تكون ثورات البربر فى العصر الأموى التى سنفصل أمرها فى هذا البحث أولى حوادث أربعة هى أبرز ماوقع خلال عصور المغرب العربى الذى سينتهى سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠ م بقيام الدولة الموحدية البربرية الخالصة، وقيامها يبدأ عصور المغرب البربرى الاسلامى التى لم يعد للعنصر العربى خلالها فى المغرب أى سلطان سياسى .

أما الحوادث الثلاثة الأخرى فهى : قيام دولة الأغالبة سنة ١٨٤/٨٠٠ م ، وقيام الدولة الزيرية سنة ٣٦٢ – ٣٧٤ ، ثم الغزوة العربية الهلالية حوالى سنة ٤٤٥هـ/١٠٥٣ م .

عمــــر بن عبد العزيز يحاول اصلاح أمور المغرب والاندلس

توفى سليمان بن عبد الملك فى صفر ٩٩ (أكتوبر ٧١٧) وخلفه عمر بن عبد العزيز ، فبدأ المغرب والأندلس فى خلافته عهداً جديداً ، شأنهما فى ذلك شأن بعض الولايات الاسلامية الأخرى ، بسبب ما امتاز به عمر من الاخلاص فى أمور المسلمين والعناية بشئون دولته والحرص على تخير العمال الصالحين القادرين على النهوض بالولايات .

ولم يقدم عمر شيئاً على إصلاح ما أفسده أسلافه من الأمويين . فى نواحى المشرق ، واشتغل بذلك عن أمور المغرب والأندلس عاما وثمانية أشهر ، فلم تتح له الفرصة للنظر فى شئونهما إلا فى رمضان سنة ١٠٠ هـ/٧١٨ — ٧١٩ م ، فأقام اسماعيل بن عبيد الله على افريقية[١] والسمح بن مالك الخولانى على الأندلس ، وكانا من أفاضل عرب افريقية ، وكان فضلهما قد ظهر قبل ذلك فى مناسبة يذكرها معظم رواتنا ولا تخلو من معنى : فيذكرون أن عادة خلفاء بنى أمية كانت قد جرت بأن لا يدخلوا خزائنهم شيئاً مما يرسله الولاة من خراج ولاياتهم الا اذا شهد عشرة من عدول أهل العسكر فى الولاية بأن هذا المال هو المستصفى الحلال لبيت المال بعد دفع أعطيات جندها والانفاق على مصالحها وشئونها . فلما أقبلت أموال افريقية فى أحد أعوام خلافة سليمان ، أقبل معها عشرة من العدول تخيرهم الوالى ، وكان فيهم اسماعيل بن عبيد الله والسمح ابن مالك الخولانى ، فحلف الثمانية الآخرون على صحة هذا المال وحلاله ، وأما السمح واسماعيل بن عبيد الله فأبيا أن يحلفا ، وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً ذلك المجلس ، فأعجبه موقف الرجلين وضمهما الى نفسه ، وادخرهما الى وقت يحتاج اليهما فيه ، فلما صارت الخلافة إليه ، واتسع وقته للعناية بشئون الغرب الاسلامى أقام اسماعيل على المغرب وأقام السمح على الأندلس[٢] . وهى رواية تدل على صحة ما كان يُتهم به ولاة افريقية للأمويين من سوء التصرف

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٣١ — ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٣
(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٢٢ — ٢٣

فى أموال البلاد وارهاقهم أهلها بالمغارم والجبايات واسرافهم فى مقادير ماكانوا يرسلونه الى دمشق من الأموال والألطاف[1].

عمر بن عبد العزيز والاندلس

تذهب المراجع الى أن عمر بن عبد العزيز كان يفكر فى اقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها منهم، «إذ خشى تغلب العدو عليهم فيها» كما يقول ابن القوطية[2]، أو «لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين» كما يقول صاحب فتح الأندلس[3] وصاحب الأخبار المجموعة[4]. ولسنا نجد تفسيراً معقولا لهذه النزعة من خليفة عُرف بالحرص على نشر الاسلام وتوسيع رقعته، لأن حال المسلمين فى الأندلس كانت فى إقبال الى ذلك الحين، ولم يكن الأعداء قد نهضوا لهم على الوجه الخطر الذى سيعرفه المسلمون فيما بعد، ولم تكن فتن العصبية قد عصفت بهم وأغرقتهم وأضعفتهم، بل لم يكن جند المسلمين فى الأندلس وما تلاها قد أصيب بهزيمة واحدة. وربما جاز تعليله بأن عمر لم يكن يعلم شيئاً من عظمة الأندلس واتساع مداها واستقرار أمر المسلمين فيها وما كسبوه من فتحها وما يعود على الدولة الاسلامية من أسباب الخير والقوة من بقائها فى أيديهم، ولهذا تذكر المراجع أنه طلب الى السمح «أن يكتب اليه بصفة الأندلس وأنهارها وبحرها»، ولا يستبعد أن يكون أباح له إقفال المسلمين منها اذا وجد أنها لا تستحق عناء حكمها والمحافظة عليها، «فكتب اليه السمح يعرفه بقوة الاسلام وكثرة مداينهم وشرف معاقلهم[5]». فلما استوثق عمر من أهمية الاندلس وثبات أقدام المسلمين فيها أولاها من عنايته ماهى أهل له.

وكان أول ما اهتم به عمر بن عبد العزيز هو ضبط أموال المغرب والأندلس وتنظيم أمر خراجهما، وهو أمر لم يعن به واحد ممن سبقه من الخلفاء فانتدب مولى من ثقاته يسمى جابر، وبعثه فى هذه المهمة الى الأندلس، ولم

---

(1) الأخبار المجموعة ص ٢٣ — فتح الأندلس ص ٢٤ — ٢٥

(2) ابن القوطية، افتتاح، ص ١٢

(3) فتح الأندلس، ص ٢٤ — ٢٥

(4) الأخبار المجموعة، ص ٢٣

(5) ابن القوطية، افتتاح ص ١٢ — ١٣

تحدثنا المراجع بشيء عما فعله في المغرب بهذا الصدد [1]، ولسنا نعلم الأساس الذى سار عليه جابر هذا فى أداء مهمته تلك فى الاندلس ، لأن النصوص تذكر أنه اهتم بتمييز أرض الصلح من أرض العنوة ، وبأنه أراد أن يستخرج خمس العنوة لكى يضمه الى أرض الدولة ، فلم يخرج فى الخمس الا ربضاً من أرباض قرطبة جعله مقبرة للمسلمين « وأقر القرى بيد غنامها » ، وهذه عبارة لا تفسر الا بأن جابراً اعتبر إقليم قرطبة هو الاقليم الاندلسى الوحيد الذى فُتح عنوة ، فأخذ خمسه للدولة ، وأما بقية الاندلس فاعتبره قد فتح صلحاً .

ولما كنا نعلم أن معظم نواحى الأندلس قد فتحت عنوة : الجنوب وأقاليم قرطبة وأشبيليه وماردة على الأقل — فكيف لم يزد خمس ذلك كله على ربض من أرباض قرطبة ؟ ثم ما معنى قول المؤرخين انه « أقر القرى فى أيدى غنامها » ؟ على أى أساس تركها فى أيديهم ؟ ان لفظ « غنامها » هنا يسمح لنا بأن نفترض أن الحكومة المركزية اعتبرت ما فُتح من بلاد الأندلس غنيمة لمن فتحوه ، فتركت كل ناحية بأيدى من فتحوها واستقروا فيها . اننا نفترض ذلك مجرد افتراض ، ولا يمكننا ايراده على صورة مؤكدة ، لأن عبارات المراجع قليلة مبتسرة غامضة ، ولا تعيننا بأية صورة على تبين النظام الذى وضعه المسلمون للأندلس فى ذلك الحين .

ويبدو أن السمح كان ماضياً فى تنظيم البلد واحصاء أمواله ، ولكن الظروف لم تمهله ، لأن خلافة عمر بن عبد العزيز لم تطل ، وهو لم يولَّ على الأندلس الا بعد أن انقضى منها نحو العام ، وكان عليه الى جانب هذا العمل الادارى أن ينشط للغزوات فى أحيانها ، وكان عظيم المنة فى الجهاد ، فلم يلبث أن استشهد فى طرسونة فى يوم عرفه من سنة ١٠٢ هـ/٧٢١م ، فلم تتح له فرصة استكمال العمل الادارى الذى بدأه [2] .

فاذا انقضت أيام الخليفة التقى العادل عمر بن عبد العزيز وواليه المجتهدين اسماعيل بن عبيد الله والسمح بن مالك الخولانى فقد عادت الأحوال فى المغرب الاسلامى الى ما كانت عليه أيام سليمان ومن سبقه ، وعاد حكام افريقية يستبدون

---

(١) ابن القوطية ، افتتاح ص ١٢

(٢) الرسالة الشريفية ، ص ٢٠٠ — ٢٠٣

بالأندلس ويولون عليه من الحكام من يشاءون، وعاد هؤلاء يصرّفون أموره على الوجه الذي يحبونه. ولقد رأى الأندلس فى الفترة بين سنتى ١٠٢ و ١١٢ هـ/٧٢٠ — ٧٣١ م ستة حكام لا نكاد نذكر لهم الا اهتماما ظاهراً بالحروب فيما وراء البرانس وانصرافا بالغاً الى المنازعات العصبية العنيفة[١].

خلافات العصبية

وكانت ولاية افريقية خلال هذه الفترة كلها إلى رجلين من كبار رجال بنى أمية هما يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج وكاتبه ١٠٢ — ١٠٣هـ / ٧٢٠ — ٧٢١ م وبشر بن صفوان الكلبى ١٠٣ — ١٠٩هـ/٧٢١ — ٧٢٦م. وكانت خلافة المسلمين الى اثنين من أشد الأمويين اغراقاً فى العصبية القبلية هما يزيد بن عبد الملك ١٠١ — ١٠٥هـ/٧٢٠ — ٧٢٤م، وهشام بن عبد الملك ١٠٥ — ١٢٥ هـ / ٧٢٤ — ٧٤٣ م، وفى عهدهما ظهر فى البيت الأموى الانقسام والتفرق اللذان انتهيا باضعاف البيت كله وذهاب ريحه، فقد كان يزيد بن عبدالملك مُضَرى الميول: أغضب يزيدَ بن المهلب وحاربه حتى قتله، وتعقب اليمنيةَ بألوان الأذى حتى نفروا منه ومالوا الى أعدائه، وامتلأت نفوسهم بالثورة عليه، وعادت اليهم أحقاد مرج راهط وتحركت فى قلوبهم ثاراتها[٢]، وأقام على افريقية يزيد بن أبى مسلم هذا، وكان من كبار القيسية، فلما قتل أقام مكانه بشر بن صفوان، وقَوِىَ جانب القيسية فى بلاد الدولة

---

(١) م عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى من ذى الحجة سنة ١٠٢ الى صفر سنة ١٠٣ (من يوليه الى أغسطس ٧٢١) وعنبسة بن سحيم الكلبى من صفر سنة ١٠٣ الى شعبان سنة ١٠٧ (٧٢١—٧٢٦)، وعذرة بن عبد الله الفهرى من شعبان سنة ١٠٧ الى شوال سنة ١٠٧ (من يناير الى مارس ٧٢٦)، ويحيى بن سلامة العاملى من شوال سنة ١٠٧ الى ربيع أول سنة ١١٠ (من مارس ٧٢٦ الى يوليه ٧٢٨)، وحذيفة بن الأحوص القيسى من ربيع أول سنة ١١٠ الى شعبان سنة ١١٠ (من يوليه الى ديسمبر ٧٢٨)، وعثمان ابن أبى نسعة الخثعمى من شعبان سنة ١١٠ الى المحرم سنة ١١١ (الى أبريل ٧٢٩)، والهيثم بن عبيد الكلبى من المحرم سنة ١١١ الى ذى القعدة سنة ١١١ (الى فبراير ٧٣٠)

انظر ابن عذارى، البيان ج ٢ ص ٢٦ — ٢٧

والبحث الذى كتبه لافونتى اى الكانترا وذيل به ترجمته للأخبار المجموعة وحقق فيه ولايات عمال الاندلس.

LA FUENTE Y ALCÁNTARA; *Cronologia de los gobernodores de España.* Apéndice III de la *Ajbar Machũa*, pp. 220-242.

(٢) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج ٨ ص ١٣٦ ومابعدها، ابن الاثير، الكامل، ج ٥ ص ٢٣ ومابعدها، المسعودى، مروج الذهب ج ٢ ص ١٣٥ — ١٣٦

الاسلامية كلها ، فلما اقبل أخوه هشام بدا له أن يخفف من غلواء القيسية المضرية بقبض يده عنهم ، ومن ثم أقام نفراً من كبار اليمنية الكلبية من أمثال خالد بن عبد الله القسرى وأخيه أسد على الولايات ، فأخذوا يضطهدون المضرية اضطهاداً رضى عنه الخليفة وان لم يفعل فعلهما. ولهذا ترك بشر ابن صفوان فى ولايته لأن ميوله كانت كلبية يمنية ، وحينما توفى بشر بن صفوان سنة ١٠٩هـ/٧٢٦ م كانت ميول الخليفة قد انحرفت بعض الشيء عن الكلبية اليمنية ومالت نفسه الى إضعاف أمرها، ولهذا أخذ يولى بعض القيسية كبار المناصب ، فولى يوسف بن عمر الثقفى العراق ونصرا بن سيار خراسان وعبيدة بن عبد الرحمن السلمى إفريقية ، وكانوا جميعا من غلاة القيسية ، فأخذوا يضطهدون اليمنية الكلبية ، حتى ليذكر النويرى أن عبيدة بن عبد الرحمن السلمى لم يكد يصل إلى إفريقية حتى « أخذ عمال بشر ابن صفوان فحبسهم وتحمل عليهم وكان فيهم أبو الخطاب بن صفوان الكلبى[1] » .

هكذا أخذت عواصف العصبية تعصف بالدولة فى القلب وفى الولايات ، ولم يقتصر الأمر على العمال ورجال الدولة بل تعداه الى عامة الناس ، لأن الجاليات العربية التى كانت قد هاجرت الى الولايات واستقرت فيها لم تخرج عن أن تكون قيسية مضرية أو كلبية يمنية ، فاذا كان العامل قيسياً حابى القيسية واضطهد الكلبية اليمنية وآذاها ، واشتبكت بينه وبينها الحروب ، واذا كان كلبياً عسف القيسية وأنزل بها من البلاء شيئاً كثيراً . ومن هنا قامت الحروب بين العرب فى الولايات ، وتخضبت أراضى الدولة الاسلامية من خراسان الى أقصى الأندلس بدماء العرب ، وشغلتهم هذه الخلافات فى كل ناحية عما هو أهم منها وأولى بالعناية من الأمور . ولم يشق بلد من بلاد المسلمين بهذه الخصومات كما شقى بها المغرب والأندلس ، لا لأنها كانت فيهما أقسى وأعنف ، بل لأن المغرب والاندلس كانا الى ذلك الحين بمثابة الثغر الكبير لبلاد المسلمين عامة ، وكان لابد لمن يقوم فيهما من العرب أن يكونوا كتلة واحدة يقظة ، والا نهض لهم العدو — الذى لم يُقض عليه القضاء المبرم — واستعاد قوته ، وتحفز لقتالهم وهم فى شغل عنه ، وهذا هو الذى حدث بالفعل :

(1) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٣ — ٢١٦ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ص ٣٣ وراجع تعليق فورنيل على هذه التغيرات العصبية فى الفترة الأموية :
H. Fournel, *Les Berberès*, I. pp. 270—271.

شُغل العرب بتصفية ثاراتهم القبلية العصبية عن بقايا القوط فى الأندلس ، وعن إتمام إخضاع البربر فى إفريقية ، فأصاب هؤلاء وأولئك فرصة كانوا فى أشد الحاجة إليها ، واستطاعوا أن يستعيدوا ثباتهم وأن يمكنوا أقدامهم فى نواحيهم النائية ، ثم أخذوا يتقدمون على مهل منتهزين الفرصة فى هؤلاء العرب الذين شغلتهم قيس وكلب عن القوط والنصرانية والوثنية معا . وليس الى الشك سبيل فى أن هذه المنازعات العصبية وحدها هى السبب فى نهضة فلول القوط وتقدمهم لمنازعة العرب هذه المنازعة الطويلة التى انتهت بخروج المسلمين من البلاد جملة ، وأنها هى السبب فى ثورة برابر المغرب جميعه على العرب ، لأنها أتت فى وقت حرج كان المسلمون أحق فيه بأن يبذلوا قصارى جهدهم فى إتمام فتح البلدين ، فعاقتهم عن ذلك واضطرب الأمر عليهم فيهما جميعا .

فترة سيادة الكلبيين اليمنيين فى المغرب والأندلس

كانت ولاية يزيد بن أبى مسلم وبشر بن صفوان فى افريقية كلبية يمنية صرفة ، وقد عُرف الكلبيون اليمنيون باسرافهم فى العصبية على الموالى فى كل ناحية ، وحسبنا من ذلك الاشارة الى سياسة الحجاج وعسفه موالى فارس ، وكان يزيد بن مسلم تلميذه وكاتبه [1] ، فحسب أنه يستطيع أن يسير فى البربر بسيرة الحجاج فى أهل العراق وفارس [2] ، وأخذ يعسف البربر ويشتد فى جمع أموالهم وسبى نسائهم ، وكان شديد العناية بالطاف الخلفاء وكسب قلوبهم بالهدايا ، فصار يتخير أحسن نساء البربر ليبعث بهن الى الخليفة ، وكان يأخذ المائة من الغنم ويذبحها ليأخذ فراءها العسلى الصافى ويرسلها الى دمشق فربما ذبح مائة شاة دون أن يستخلص منها جلداً واحدا سليما ، فتغيرت نفوس البربر ، وبدأت قلوبهم تتحدث بالثورة عليه ، لأن البربر كالعرب قوم بدو لا يعرفون طاعة ولا ذلة [3] .

مسئولية الخلفاء عن أعمال عمالهم فى المغرب

وليس الى الشك سبيل فى أن خلفاء بنى أمية لم يكونوا ليرضوا عن سياسة يزيد بن أبى مسلم وبشر بن صفوان فى افريقية ، وأنهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عن الوسائل التى كانا يلجآن اليها فى عسف البربر والاستبداد بهم

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٣ — ٢١٤ وأبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٧٢

(٢) النويرى ، نهاية الارب ، ج ١ ، ص ٢١

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٣ وما يليها — النويرى نهاية الارب ص ٢١ وما يليها .

ومن دلائل ذلك أن يزيد بن عبد الملك لم يغضب حينما علم بقتل البربر واليه يزيد بن أبى مسلم ، وقال صراحة انه لم يرض عن عمله ، ثم أقر محمداً ابن أوس الأنصارى الذى أقامه أهل افريقية على أنفسهم [١] .

وربما تبادر الى الذهن أن الخلفاء كانوا يكلفون العمال أن يكثروا من الهدايا والالطاف ، فكان العمال يضطرون لهذا الى الاسراف فى عسف الناس والاشتطاط معهم ، ولكن رواية لابن عذارى تدل على أن العمال يحملون أكبر جانب من المسئولية فى هذا ، وذلك حيث يقول: « وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ، ويبعثون فيها الى عامل افريقية ، فيبعثون لهم البربريات المسبيات ، فلما أفضى الأمر الى ابن الحبحاب مناهم بالكثير وتكلف لهم — أو كلفوه — أكثر مما كان ، فاضطر الى التعسف وسوء السيرة [٢] » وهى رواية تدل على أن الخلفاء كانوا يستحبون طرائف افريقية فقط ، وأن العمال كانوا يتكلفون الاسراف فى عسف الناس طلباً فى المزيد من رضى الخلفاء .

وكان الكلبيون بطبعهم على جانب قليل من السياسة والكياسة ، فأسرفوا فى الأمر إسرافاً نفر البربر ودفعهم الى الثورة . وشجعهم على المضى فى هذا العسف ماكان قائما إذ ذاك بين العرب أنفسهم من عداء .

ثورة نفوس البتر — زناته

وكان وضع العرب فى بلاد المغرب بُعَيد الفتح وضعاً فريداً فى ذاته ، فان بربر المغرب — على ما نعرف — ينقسمون الى بتر وبرانس أو الى بدو وحضر ، فأما البتر فقد تسارعوا الى الانضمام للعرب من أول الأمر واشتركوا معهم فى فتح البلاد ، ولولا مساعدة قبائل بترية مثل لواته ونفُوسه وهوارة وبرغُواطه [٣] ، لما استطاع العرب الوصول فى المغرب الى هذه النتيجة الباهرة التى وصلوا اليها

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٣

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٢ — ٣٣

(٣) راجع النصوص الخاصة بانضمام هذه القبائل الى المسلمين من أول الأمر فى: البلاذرى: فتوح ص ٢٢٤ — ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٠٠ — ٢٠١ ، ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ١٨٤ — ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص ١٠٨ ، وانظر فتح العرب للمغرب ص ٢٨٢ وما يليها .

بعد جهد طويل متصل . فلما انتصر العرب واستقرت أقدامهم فى البلاد توقع البتر أن يعتبروهم مساوين لهم ، وأن يميزوهم عن البرانس الذين قاوموهم مقاومة عنيفة ولم يُلقوا بيد الطاعة إلا بعد أن يئسوا من كل عون من ناحية البيزنطيين ، ولكن العرب لم يفطنوا الى ذلك ، ومضوا يعاملون البربر جميعاً معاملة واحدة ، واشتدوا عليهم جميعاً ، أصدقاء وغير أصدقاء ، أحلافاً وغير أحلاف ، فتغيرت نفوس البتر — وزناتة منهم خاصة — وبدأوا يفكرون فى الثورة على العرب عامة . ثم ان البربر — والبتر منهم خاصة — حملوا معظم عبء فتح الأندلس ، وقُتل منهم فى هذا السبيل آلاف فى حين لم يفقد العرب إلا بضع مئات ، وكان نفر من قادة الفتح بربراً زناتيين مثل طريف بن أبى زرعة وطارق بن زياد ، فلم يحسن العرب جزاء هذين ، بل أصاب موسى طارقاً بشر كبير ، ولم ينظر عرب الأندلس الى بربرها نظر الند للند ، فأنكر البربر ذلك وبدأت نفوسهم تتغير . وربما كان دافع عرب الأندلس الى إساءة معاملة البربر هو خوفهم منهم ، فقد كان البربر فى الأندلس أضعاف العرب عدداً ، وكان العرب يشعرون أنهم أقلية ، وكان شعورهم بهذا يدفعهم الى التحرز من البربر وابعادهم عن الحكومة والسلطان ، فزاد ذلك فى سخط هؤلاء ؛ وكان البتر هم حرس الولاة المقربون اليهم ، وكان الولاة قبل يزيد بن أبى مسلم يميزونهم من البرانس ويتخذون منهم بطانتهم ، فلما جاء يزيد بن أبى مسلم أغفل هذه الناحية وأساء معاملة البتر وأراد امتهانهم واذلالهم ، فنفرت نفوسهم منه ، وفقد العرب من ذلك الحين ولاء هذا الفريق القوى من بربر افريقية وسيكون لذلك أثر كبير فى تطور الحوادث فيما بعد [1].

الافارقة

وكان فى افريقية الى جانب البربر والروم نفر كبير من الأفارقة ، أى من الأجانب المستوطنين الذين طال مُكثهم فى البلاد حتى أصبحوا افريقيين ، وكان معظم هؤلاء يسكنون المدن ومواقع

(١) لاحظ قول ابن عبد الحكم : « ويقال : بل كان حرس يزيد بن أبى مسلم حين قدم البربر ليس فيهم الا بترى ، وكانوا هم حرس الولاة قبله ، البتر خاصة ليس فيهم من البرانس أحد ، فخطب يزيد بن أبى مسلم الناس فقال : انى ان أصبحت صالحاً وشمت حرسى فى أيديهم كما تصنع الروم ، فاشم فى يد الرجل اليمنى اسمه وفى اليسرى : حرسى ، فيعرفوا بذلك عن غيرهم ، فأنفوا من ذلك ، ودب بعضهم الى بعض فى قتله » . فتوح ، ص ٢١٤

الساحل ، وكانوا على علائق حسنة مع الروم متأثرين بحضارتهم ، وكان فيهم كثير من النصارى . ولما أقبل العرب وأنشأوا يحاربون الروم وقف هؤلاء الأفارقة على الحياد بل أقبل نفر منهم على الاسلام ، وكانوا ينتظرون ألا يعتبرهم العرب روماً وألا يعسفوهم ، ولكن العرب وضعوهم والروم فى منزلة واحدة ، فاعتبروا الأفارقة موالى ، وغنموا أراضيهم وأموالهم ، فانقلبوا أعداء لهم ، واتصلوا بزناته ، وتفاهم الحيان على الثورة [1] .

دعاة الخارجية فى المغرب

وزاد الحال حرجاً أن اشتداد بنى أمية مع العلويين والخوارج أرهبهم ونفرهم من الشام والعراق وجزيرة العرب ، فمضوا يلتمسون الأمان حيثما وجدوه ، وفرّ منهم نفر كبير إلى المغرب حيث وجدوا أهله حانقين على الأمويين مستعدين للثورة عليهم ، فلم يكن أيسر على هؤلاء العلويين والخوارج من كسب هؤلاء البربر إلى صفوفهم ؛ ووجدت مذاهب الخارجية — الصفرية والأباضية خاصة — قبولا طيباً من البربر ، وهكذا تهيأت فى بلاد المغرب كلها الظروف لثورة عامة كبرى على الأمويين والعرب عامة .

ويُجمع مؤرخو المغرب على أن معظم من أقبل إلى افريقية من هؤلاء الدعاة كانوا من الصفرية والاباضية ، ولسنا نعلم بالضبط لماذا كان معظم دعاة الثورة فى المغرب من هذين الفريقين من الخوارج ، ولا السبب فى إقبال أهل المغرب عليهما خاصة ، لأن مبادىء الفريقين ليست مما يجتذب البربر ، فهما أكثر الخوارج ميلا إلى المسالمة والتسامح مع المخالفين [2] ، بل الأباضية لاتحِلُّ قتال غير الخوارج من المسلمين ولا تستحل من الغنائم غير السلاح

(١) يفهم من روايتين لأبى المحاسن والسلاوى أن زعامة برابر طنجة فى الثورة التى سنتحدث عنها كانت الى ميسرة المطغرى وعبد الأعلى بن جريج الأفريقى ، وكان مع كل منهما قومه ، مما يدل على أن الطائفتين اتفقتا على الوثوب بالعرب .

انظر أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٨ ، السلاوى ، الاستقصاء ، ج ١ ص ٤٩ .

(٢) الشهرستانى ، الملل والنحل ص ١٦٨ — ١٦٩ ، البغدادى ، الفرق بين الفرق ص ٦١ — ٦٢

والخيل ، والصفرية تكاد تكون أكثر مذاهب الخارجية اعتدالا ، والبربر على ما نعلم لا يميلون إلى الاعتدال فى العقائد ، وسنرى من أحداث ثورتهم أنهم كانوا متطرفين لا يعرفون وسطا . وربما كان الأحجى أن نشك فى نسبة هذه الحركات إلى الصفرية والاباضية خاصة ، لأن أسبابها كانت سياسية قبل أن تكون دينية ، ولسنا نجد على أى الأحوال فى أخبار هذه الثورة الكبيرة دليلا واضحاً على صفرية القائمين بالحركة أو اباضيتهم ، والأسلم أن نسميهم خوارج فحسب ، خوارج سياسيين لا دينيين .

ولصاحب « الأخبار المجموعة » رواية يفهم منها أن البواعث البعيدة لهذه الحركة كانت موضع خلاف بين المؤرخين القدماء أنفسهم ، وذلك حيث يقول : « وقد يقول من يطعن على الأئمة أنهم إنما خرجوا ضيقاً من سير عمالهم ، وأن الخليفة وولده كانوا يكتبون إلى عمال طنجه فى جلود الخرفان العسلية ، فتذبح مائة شاة ، فربما لم يوجد فيها إلا جلد واحد ، وهو قول البغض للأئمة ، فان كانوا صدقوا ، فما بال التحكيم فشا فيهم ورفعُ المصاحف وحلقُ الرؤوس ، اقتداء بالأزارقة وأهل النهروان ، أصحاب عبد الملك بن وهب وزيد بن حصن[1]... » .

وظاهر أن صاحب هذا المجموع القيم من الأخبار يحاول الدفاع عن خلفاء بنى أمية لأنهم أجداد أموية الاندلس ، وليس إلى الشك سبيل فى أن عبارته هذه موجهة إلى نفر من معاصريه الذين كانوا يرمون خلفاء بنى أمية بالظلم ويحملونهم مسئولية هذه الحركة الخطيرة .

ومهما يكن من الأمر فقد اجتهد دعاة الخارجية هؤلاء اجتهاداً عظيما فى إثارة البربر ودفعهم إلى الوثوب بالعرب . ومن دلائل ذلك قول المالكى : « وكانوا — أى أهل افريقية — يقولون : لا نخالف الأئمة بما تجنى العمال ، فقالوا — أى الدعاة الذين كانوا يحرضون البربر على الفتنة — لهم : انما يعمل هؤلاء بأمر أولئك ! فقالوا : حتى نخبرهم ![2] » .

« فخرج ميسرة فى بضعة وعشرين رجلا ، فقدموا على هشام ، فلم يؤذن لهم ، فدخلوا على الأبرش فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده ،

---

(١) الأخبار المجموعة ص ٣١ — ٣٢

(٢) المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٣٠ (١) .

فاذا غنمنا نفلهم ولم ينفلنا ، ويقول: هذا أخلص لجهادكم ..! ، فقلنا : لم نجد هذا فى كتاب ولا سنة ، ونحن مسلمون ! فأحببنا أن نعرف أعن رأى أمير المؤمنين هذا أم لا ؟ فطال عليهم المقام ونفدت نفقاتهم ، فكتبوا أسماءهم ودفعوها الى وزرائه ، وقالوا : ان سأل عنا أمير المؤمنين فأخبروه ،ثم رجعوا الى افريقية . وبلغ الخبر هشاماً فسأل عن النفر ، فعرف أسماءهم ، فاذا هم الذين صنعوا ذلك[1] » مما يدل على أن أهل افريقية أنكروا هذه المعاملة السيئة من عمال الأمويين ، وجعل هؤلاء الدعاة يدفعونهم الى الثورة ويؤكدون لهم أن ذلك الظلم الذى ينزل بهم انما مصدره الخلفاء أنفسهم ، فأحب ميسرة — زعيم البربر — أن يتأكد من الأمر قبل أن يُقدم على شىء ، فمضى فى وفد من أهل بلده الى دمشق ليبسط ظلامته أمام الخليفة هشام، فلم يستطيعوا مقابلته، فعادوا ولا مندوحة لهم عن الثورة .

العصبية العربية فى الأندلس

وكان الأندلس تابعاً لافريقية فى ذلك الحين ، فلا غرابة أن تظهر فيه أصداء ذلك كله،ولا غرابة فى أن يكون لها جميعاً أسوأ الأثر على مصائر الاسلام فيه للأسباب التى ذكرناها .

أقام يزيدُ بن أبى مسلم وبشرُ بن صفوان الكلبيان اليمنيان على الأندلس عمالا يمنيين كلبيين هم عنبسة بن سحيم الكلبى (صفر ١٠٣ — شعبان ١٠٧) وعذرة بن عبد الله الفهرى (شعبان ١٠٧ — شوال ١٠٧) ويحيى بن سلامة العاملى (إلى ربيع الأول سنة ١١٠)، وقد حكم ثلاثتهم سبع سنوات(شوال١٠٧— ربيع أول ١١٠) تعصبوا خلالها لليمنية الكلبية وأوغروا صدور القيسية ، وكانت قيسية الأندلس موغرة الصدر بطبعها لا تحتاج إلى من يحرك نيران أحقادها ، لأن الكثيرين من أفرادها كانوا ممن حضر حروب الزبيريين والمروانيين فى المشرق ، بل كان منهم من حضر مرج راهط ورأى بعينيه مصارع القيسية وأفول نجمها بهزيمة الزبيريين ، وكانوا ينتظرون الفرصة ليسووا حسابهم القديم مع اليمنيين الكلبيين .

---

(١) المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٣٠ (ا — ب) وليس لدينا ما يؤيد ذهاب ميسرة الى المشرق ، ولكننا نستطيع أن نستخلص من هذه الرواية أن زعماء البربر حاولوا بسط شكايتهم أمام الخلفاء قبل أن يلجأوا الى الثورة .

فلم يكد هؤلاء الولاة الثلاثة يسيرون فى سياستهم اليمنية الكلبية حتى امتلأت قلوب القيسية ألماً وجاشت نفوسهم بالثورة ، وغدوا لا ينتظرون إلا الفرصة المواتية[١].

وكان هؤلاء الكلبيون كغيرهم من اليمنيين ذوى شَرَه إلى الاموال وعسف فى جمعها ، وقد اشتد سحيم منهم شدة خاصة ، فألزم النصارى فى الاندلس بدفع جزية مضاعفة ، فتغيرت نفوس أهل البلاد وبدأ القلق يسودها من كل وجه[٢].

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٢٤ — ٢٥ ،

Dozy, *Musulmans d'Espagne*, I. pp. 135, 599.

(٢) ايزودور الباجى ، (فقرة رقم ٥٢) اسمه الكامل Isidoro Pacence وهو مؤلف وهمى يقال انه كان أسقفاً لمدينة Pace أو Pax-Julia وهى Beja الحالية من مدن البرتغال (باجه عند العرب) ينسب اليه تاريخ هام لاسبانيا اسمه :

Epitoma (epitome) Imperatorum vel Arabum Ephemerides atque Hispaniae Chronographiae sub uno voliumine Collecta.

وهو يشمل تاريخ اسبانيا من أواخر العصر القوطى (من نهاية حكم سيبرت الى نهاية حكم يوسف الفهرى آخر عمال الأندلس للأمويين ، وهو يضم معلومات هامة عن الدولة البيزنطية والدولة الاسلامية فى المشرق خلال هذه الفترة . ولم يستطع البحث التاريخى الاهتداء الى حقيقة أيزودور هذا أو الى نسبة هذا الكتاب اليه ، ولهذا يفضل الكثيرون تسميته « بالتاريخ الطليطلى المجهول المؤلف El-Anónimo Toledano » لأن مخطوطته وجدت فى طليطلة . والذى لا شك فيه هو أن مؤلف هذا المجموع الفريد من الأخبار كان واحدا من رجال الدين الاسبان ، ولكنه يمتاز عن هؤلاء جميعاً باعتدال فى الرأى وبعد نسبي عن العصبية الدينية التى نجدها عند غيره من مؤرخى اسبانيا من رجال الدين . وروايته تزودنا بمعلومات قيمة جداً عن خلفاء الأمويين بالمشرق وأعمال عمال بنى أمية فى افريقية والاندلس .

ويفهم من نص روايته ، ومن كتب أخرى معاصرة ، أنه كتب كتباً أخرى هى :

1—Epitome Regum Wisigothorum a tempori Recaredi principis.

2—Epitome Temporum.

(مختصر تاريخ العصور) — وفيه يتحدث بالتفصيل عن الحروب التى جرت بين البربر وكلثوم بن عياض عامل هشام بن عبد الملك على افريقية .

3—Epitome.

يقص فيه أخبار الحروب بين بلج بن بشر ومن معه من الشامية وبقية عرب الأندلس .

4—Liber verborum dierum Saeculi.

وهو يكمل فيه ذكر الاحداث التى فاته ذكرها فى كتبه السابقة . وكتابه الأول هو أهمها من غير شك ، وهو المشار اليه فى التواريخ الأندلسية ، وهو الذى نقصده نحن فى هذا البحث . وظاهر أن مؤلفه أراد أن يجعل منه صلة لتاريخ ايزودور الاشبيلى San Isidoro de Sevilla نجد نصه الكامل عند :

Theodor Mommsen, *Auctorum Antiquissimorum*, tomus XI, *Cronica Minora*. (Saec. IV, V, VI, VIII) II, pp. 334-360 Berolini, 1893.

فلما تولى إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السُّلمى[1] وكان قيسياً ، انقلبت الآية وتوالت على الأندلس سنوات قيسية لقى الكلبيون اليمنيون خلالها بلاء شديداً ، قام بالأمر خلالها حذيفة بن الأحوص القيسى وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، والهيثم بن عبيد الله الكنانى ، ومحمد بن عبد الله الأشجعى ، واستمرت حتى سنة ١١١ هـ ، وقد اشتد الهيثم مع اليمنيين شدة أثارتهم ودفعتهم إلى العصيان علانية ، وقد بلغ من شدته أن أنكر هشام عليه ذلك — رغم قيسيته — وعزله وعاقبه عقاباً صارماً[2].

ومن عهد الهيثم هذا تبدأ فى الأندلس خصومة القيسية واليمنية الصريحة الخطرة التى سيكون لها أسوأ الأثر على مصير الاسلام فى الأندلس خاصة والمغرب عامة .

= وفى :

FLOREZ, *España Sagrada*, pp. 283-307, *Isidori Pacencis Episcopi, chronicon.*

ونشر أجزاءاً منه LAFUENTE Y ALCÀNTARA كلحق لترجمته الاسبانية للأخبار المجموعة . ص ١٤٦ وما بعدها .

وانظر عنه :

LUDOLF SCHEVENKOW, *Kritische Betrachtungen über die lateiniscü-geschriebenen Quellen zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber. 1894.*

FRANCISCO JAVIER SIMONET, *Historia de los Mozárabés de España*, (Madrid 1867-1603) pp. 234 599.

CESAR DUBLER, *Sobre la Cronica Arabigo-Bizantina de 741 y la Influencia Bizantina en la Peninsu'a Ibérica* (*Al-Andalus, vol. XI fasc.* 2 Madrid'Grenada, 1956) pp. 283-349.

(١) أثار وصول عبيدة بن عبد الرحمن الى افريقية اضطراباً كبيراً ، لأن الكلبيين كانوا قد اطمأنوا الى السيادة فى عهد سلفه بشر بن صفوان ، وكان معظم عرب افريقية والأندلس كلبيين يمنيين كما ذكرنا ، وكان بشر قد ترك مكانه كلبياً ، فلم يكد يستقر فى الولاية حتى فاجأه هشام بعبيدة بن عبد الرحمن ، ودخل عبيدة القيروان فجأة ، كأنما كان يتوقع معارضة ومقاومة ، ولم يقدم شيئاً على عسف اليمنيين عسفاً جاوز الحد المألوف .

انظر ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٣٦ ، النويرى ، نهاية الارب ج ١ ص ، ابن الابار : الحلة السيراء ص ٤٧ — ٤٩ ، ابن الأثير ، الكامل ج ٥ ص ١٠٨ ، ١٣٠

(٢) ايزودور ، فقرة ٥٧ — ابن الأثير ، الكامل ، ج ٥ ص ٦٨ ، ٧٤

بيد أننا ينبغى أن نذكر أن المسلمين كانوا معنيين خلال ذلك كله بالحروب فيما وراء البرانس، فقد استمرت جهودهم بعد مقتل السمح بن مالك الخولانى، ووصلت جيوش المسلمين فى أيامهم إلى قريب من أفينيون، وكانت أربونة عاصمة الهيثم بن عبيد الكنانى يقيم فيها معظم وقته[1].

ولسنا نجد ما نسجله فى عهود هؤلاء الحكام القصيرة إلا ثورة بلايه زعيم فلول القوط فى نواحى أشتُريس، وهى ثورة خطيرة تعيّن بدء المقاومة الاسبانية، وقد وقعت فى عصر عنبسة بن سُحيم[2].

وفى صفر سنة ١١٢هـ/٧٣٠م أقام عبيد الله بن الحجاج السُلمى عبد الرحمن ابن عبد الله الغافقى أميراً على الأندلس، وكان عبد الرحمن من كبار رجال جند الأندلس، وقد قضى حياته حتى ذلك الحين يغازى الأعداء فيما يلى البرانس، وكان الجند قد أقاموه والياً على الأندلس قبل ذلك مدة لم تزد على شهرين قبيل قدوم عنبسة بن سحيم، وكان عبد الرحمن شخصية أندلسية قضى معظم أيامه فى نواحيها وفى الجهاد فيما يليها، فكان لولايته طابع خاص لا نلمحه عند أحد ممن سبقوه، فقد كان هؤلاء مشارقة يقبلون على البلاد وهم لا يكادون يعرفون من أمرها شيئاً، ولا يكادون يحملون اليها الا عصبيتهم اليمنية أو القيسية ويزيدون الحال سوءاً. فأما عبد الرحمن فأندلسى لا يكاد يُلقى بالا الى هذه الجاهلية العصبية، ولا يكاد يلتفت الا لاقرار الامن فى البلاد وموالاة الفتح فيما يليها[3].

تجمع الروايات الاسلامية على الثناء على عبد الرحمن، بل يذهب بعضها الى القول بأنه أعظم ولاة الأندلس أجمعين وأكثرهم فضيلة وأشدهم اخلاصا فى القيام بما تفرضه الأندلس على واليها من الواجبات، والواقع أن المراجع لم تبالغ فى ذلك كثيراً، فقد كان عبد الرحمن فى واقع الأمر منظما قادراً وجنديا

---

(١) ابن عذارى، البيان، ج ٢ ص ٢٩ — ايزودور، فقرة ٥٦ و ٥٧

(٢) المقرى، نفح الطيب، ج ٢ ص ٩ — ١٠

Lévi-Provençal, *Hist. de l'Espagne musulmane*, I. p. 48 .

(٣) عن عبد الرحمن الغافقى، انظر: ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١٦ — ٢١٧ ابن حيان عند المقرى، نفح الطيب، ج ٢ ص ٥٩ — أخبار مجموعة، ص ٢٥ — ابن عذارى، البيان، ج ٢ ص ٢٧ — ٢٨، ابن الأثير، ج ٥ ص ٩٤

Isodoro Pacence, *Cronicón*, cc. 56-63 .

باسلا ، وربما شاركه فى إحدى هاتين الصفتين بعض من سبقه من ولاة الأندلس مثل السمح ابن مالك أو عنبسة بن سُحيم ، ولكنه يمتاز عن هذين وغيرهما بأنه كان سليما من نزعة العصبية التى أفسدت على معظم هؤلاء الحكام أعمالهم . وقد كان الرجل من غافق إحدى بطون كهلان اليمنية ، ولسنا نعلل اختيار عبيدة بن عبد الرحمن السلمى القيسى المتشدد إياه الا بأن شخصية عبد الرحمن كانت من الظهور بحيث صرفت عبيدة عن التفكير فى قبيلته التى أفسدت عليه الأمور زمانا [1] ، ويبدو أن عبد الرحمن كان يتمتع بمركز عظيم بين عرب الأندلس ، لأن ولايته لقيت الرضى من طوائفهم كلها يمنية وقيسية .

ولم يوفق عبد الرحمن فى غزوته الكبرى التى أراد أن يفتح فيها غالة رغم ماحشد من عدة وما بذل من جهد ، واستشهدهو ونفر عظيم ممن كانوا معه عند بلاط الشهداء على مقربة من بواتييه فى رمضان سنة ١١٤ هـ . ولا نزاع فى أن ابن حيان قد بالغ حينما زعم أن أحداً من جيش عبد الرحمن لم ينج من هذه الموقعة، لانه لايعقل أن يقتل من المسلمين سبعون ألفا ثم لا تضطرب الاندلس كلها. والواقع أن عدداً عظيما من جنود عبد الرحمن عاد الى الاندلس قبل الموقعة مستوحشاً من طول الشقة ، فلما فاجأه العدو ألفاه فى قلة فاستشهد وبعض من بقى معه .

كان لهذه الهزيمة وقع شديد فى نفس الخليفة هشام بن عبد الملك ، فقد أقبلت اليه أخبارها بعد فشل أخيه مسلمة بن عبد الملك فى اقتحام أسوار القسطنطينية بأربع عشرة سنة ، فأحس هشام أن سيوف المسلمين قد عجزت عن اقتحام معاقل المسيحية الكبرى فى الشرق والغرب ، فساءه ذلك ، وأخذ يفكر تفكيراً جادا فى علاج هذا الموقف ، وفى تقوية جبهة الاسلام من ناحية الغرب ، ويبدو أنه تخوف خطر الفرنج على مسلمى الاندلس بعد إذ استشعر قوتهم بعد هذه المعركة .

---

(١) وكان عبد الرحمن الغافقى فى خلاف دائم مع عبيدة بن عبد الرحمن ، ومصداق ذلك رواية لابن عبد الحكم يقول فيها بعد تفصيل أعمال عبد الرحمن فى احدى غزواته فى بلاد الفرنجة : « وكان فيها أصاب رجل مفضضة بالدر والياقوت والزبرجد ، فأمر بها فكسرت ، ثم أخرج الخمس ، وقسم سائر ذلك فى المسلمين الذين كانوا معه ، فبلغ ذلك عبيدة ، فغضب غضباً شديداً ، فكتب اليه كتاباً يتوعده فيه ، فكتب اليه عبد الرحمن : ان السماوات والارض لو كانتا رتقاً ، لجعل الرحمن للمتقين منهما مخرجا ، ثم خرج اليهم أيضاً غازيا فاستشهد وعامة أصحابه ... » ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٤٧

بدا هشام فعزل عبيدة بن عبد الرحمن عن إفريقية فى أواخر سنة ١١٤ هـ لأنه كان قيسيا مسرفا فى عصبيته حتى لقد أثار اليمنية وكاد يوقع المغرب الاسلامى كله فى فتنة عصبية كبرى ، واستبدل به قيسيا آخر كان يحسب أنه أهدأ منه نفسا وأقل عصبية ، ذلك هو عبيد الله بن الحبحاب .

مصاعب الحكم فى المغرب بعد موسى بن نصير

بدأ عبيد الله بن الحبحاب ولايته فى افريقية بدءاً حسنا، وقد كان وفق فى مصر توفيقا طيبا[1] ولكنه لم يستطع أن يدرك فى افريقية ما أراد من الاصلاح وتهدئة النفوس، ذلك أن المغرب الاسلامى كان يجوز إذذاك أزمة سياسية واجتماعية حادة . ولا بد أن نعود بتاريخ المغرب سنوات إلى الوراء لنتتبع هذه الأزمة منذ مبادئها .

ذلك أن حكومة موسى بن نصير وابنيه عبدالله وعبدالملك من بعده فى المغرب أضاعت على المسلمين ثمرات حكومة حسان بن النعمان وإصلاحاته ، فقد اشتد موسى وبنوه على البربر شدة نفرتهم وبغضت العرب إليهم ، وزاد الأمر سوءاً أن آل موسى احتضنوا بعض القبائل واعتبروا أفرادها موالى لهم وفضلوهم على غيرهم ، فأثار ذلك نفوس بقية القبائل ، وأخذ كثير من البربر يشعرون بأن الحكم العربى الجديد ليس خيراً فى كثير من الحكم البيزنطى المنقضى .

ولو استمر الأمر على ذلك بصورة مضطردة لانفجرت ثورة البربر فى زمن مبكر جداً ، ولكن الأحوال هدأت بعد انقضاء أمر آل موسى فترة دامت أربع سنوات من ٩٧ — ١٠١ هـ / ٧١٥ — ٧٢٠ م بسبب اعتدال محمد بن يزيد القرشى[2] واسماعيل بن عبيد الله اللذين توليا حكومة المغرب بعد آل نصير على ماذكرناه[3] .

---

(١) ابن الأبار ، الحلة السيراء (طبعة دوزى) ، ص ٣٢ — ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٣٢ ، ٣٣ — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٢٦١

(٢) المقريزى ، خطط (طبعة ڤيت) ج ٢ ص ٦١ — ٦٣

نفس المؤلف : البيان والاعراب عما بأرض مصر من العرب ، طبعة ڤستنفلد تحت عنوان :

WÜSTENFELD, *Abhandlung über die in Ägypten eingewanderten arabische Stämme*, Göttingen, 1847, pp. 39-40.

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢١٣ — ابن خلدون (طبعة نوبل دى ڤرچير) ، ص ٨

وقد بلغ من توفيق اسماعيل فى إقرار السلام فى البلاد أنه « لم يبق فى ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم[1] » كما يقول ابن عبد الحكم ، ولم يبالغ راوبتنا الجليل كثيراً فى ذلك ، فالواقع أن حسن سياسة إسماعيل وحرصه على نشر الاسلام قد كسبا للدين عدداً عظيما جداً من البربر ، فلو قلنا إن ولايته ثبّتت قدم الاسلام فى افريقية ما بالغنا ، لأن الغرب أصبح بعد ولايته بلداً إسلاميا يغلب على أهله هذا الدين[2] .

وكان من سوء الحظ أن خليفته فى ولاية المغرب لم يكن يقاربه فى شيء من ذلك ، بل كان رجلا يمنياً جافياً شديد العصبية قليل الكياسة هو يزيد بن أبى مسلم كاتب الحجاج ؛ ولاه يزيد بن عبدالملك سنة ١٠١ هـ/٧٢٠ — ٧٢١ م على ماذكرنا. ومن غريب الأمر أن يزيد بن عبد الملك أصحبه عبدَ الله بن موسى بن نصير ، وكان عبد الله قد عُزل عن المغرب وانتقل إلى المشرق فى سنة ٩٦هـ/٧١٤م[3] ، ولسنا ندرى السبب فى ذلك التصرف من يزيد ، وربما أراد منه أن يكون عبدالله — بما له من الخبرة بالبلاد والمعرفة بشئونها — عوناً ليزيد بن أبى مسلم فى شئونه ، ولكنه أخطأ التقدير ، لأن عبدالله كان موغر الصدر من بنى أمية ينتظر الفرصة للاقتصاص منهم بما فعلوا بآله وبه نفسه . ثم إن أنصار بنى نصير لم يكادوا يعلمون بمجيء عبدالله حتى خرجوا يتلقونه مرحبين ، يحسبون أيام عزهم قد عادت، فساور الخوف نفس يزيد بن أبى مسلم من هذه المكانة التى كانت لبنى نصير ، وأدركته الغيرة مما رآه من منزلة عبد الله بن موسى فى نفوس أهل البلاد ، فأحب أن يبغضه إلى نفوسهم ، وأن يضعه فى مركز حرج ، فطلب إليه أن يقوم باعداد العطاء اللازم للجند خمس سنين من ماله ، ثم أمره أن يلزم داره[4] ،

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) ابن الناجى ، معالم الايمان ، ج ١ ص ١٥٤ — ١٥٦ — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٣٢ — ٣٣

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢١٣ ، ولا يؤيد ابن عبد الحكم فى القول بهذا مؤرخ آخر ، ولكننا نقبل روايته لأنها أقدم ما لدينا . ولم يتحدث أحد من المؤرخين المغربيين عن هذه الناحية بتفصيل يعيننا على تعرف الواقع .

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٤ ؛ ولا يبعد أن يكون ذلك بايعاز من يزيد ابن عبد الملك ، لأنه كان يعتقد — مثل أخيه سليمان — أن بنى نصير اجتبوا أموالا جسيمة وأخفوها عن الدولة حتى لا تتقاضاهم اياها .

وأعقب يزيد ذلك بالشدة البالغة مع موالى بنى نصير من البربر ، فوضع يده عليهم ، واعتبرهم جزءاً من الخمس يتبع لبيت المال ويؤول لعامل المغرب ، وأحصى أموالهم وأولادهم ، وجعل نفراً من هؤلاء الموالى حرسه وبطانته ، وأراد أن يقضى على كل أثر لجاه بنى نصير فى افريقية . ولو قد اقتصر الأمر على ذلك لهان البلاء ، ولكنه لم يقصر هذا العسف على آل نصير ومواليهم ، بل توسع فيه حتى شمل به البربر أجمعين ، وأراد أن يسير فى البربر بسيرة مولاه الحجاج فى أهل العراق ، وفاته أن معظم من اشتد عليهم من البربر كانوا من البتر وزناتة ، أى من البربر الذين انضموا للعرب من أول الأمر وقدموا إليهم أخلص العون . ثم حفزه خرق الرأى إلى أن يتخذ قراراً كان فيه حتفه : قرر أن يشم حرسه البربر فى أيديهم ، فخطب الناس فقال : « انى ان أصبحت صالحاً وشمت حرسى فى أيديهم كما تصنع الروم ، فأشم فى يد الرجل اليمنى اسمه وفى اليسرى « حرسىّ » فيعرفوا بذلك من غيرهم[1] » إسرافاً منه فى الاستخفاف بالبربر وطلباً للون من الأبهة لم يعرفه العرب قبل ذلك . فثارت نفوس البربر لذلك ودبروا قتله ، وكان عبد الله بن موسى بن نصير يؤلبهم عليه ويزيد نفوسهم ثورة واضطراباً ، وبتحريضه قُتل يزيد بن أبى مسلم ، اغتاله حرسه فى سنة ١٠٢ هـ/٧٢٠ — ٧٢١ م[2] .

وأقام أهل إفريقية قاضيهم المغيرة بن أبى بردة القرشى والياً حتى يأتيهم رأى خليفتهم يزيد بن عبد الملك[3] ، فلما بلغ يزيداً نبأ مقتل يزيد بن أبى مسلم أمر عامله على مصر بشر بن صفوان أن ينهض إلى افريقية ويخلّف مكانه أخاه حنظلة[4] ، فدخل بشر إفريقية فى نفس العام الذى قتل فيه يزيد ، وكان أول ما فعله

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٤ . وراجع تعليق فورنل على ذلك :
cf : Fournel, *Les Berbères*, I. p. 271, note 8.

(٢) رياض النفوس ، ص ٣٥ (١) .

(٣) ولم يستقر المغيرة فى الولاية الا قليلا ، لأن ابنه خوفه من أن يظن الخليفة أنه شارك فى قتل يزيد بن مسلم اذا وجده والياً مكانه ، فاعتزل ، وولى أهل افريقية مكانه محمد بن أوس الأنصارى ، وكان بتونس على غزو بحرها ، فأرسلوا اليه فولوه أمرهم ، ثم عزله يزيد ببشر ابن صفوان : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٥

(٤) F. Wüstenfeld, *Die Statthalter von Ägypten zur Zeit der Chalifen* ; erste Abteilung (Götting,en 1875), pp. 42-43.

هو ان أخذ عبدالله بن موسى بن نصير فقتله [1]، وتتبع أموال بنى نصير بالاستقصاء وأنصارهم بالتعذيب ، وعزل عن الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفى وولى مكانه كلبياً يمنياً هو عنبسة بن سحيم [2]. وظل بشر عاملا على إفريقية بقية خلافة يزيد وجزءاً من ولاية هشام حتى توفى فى شوال سنة ١٠٩هـ/٧٢٧ — ٧٢٨م واستطاع أن يهدئ أمورها بسبب ما أسرف فيه من استعمال القسوة البالغة [3]، ولم يسرف أحد من عمال بنى أمية الكلبيين فى العصبية لقومه أحد كما فعل بشر، فقد اشتد فى ذلك شدة ملأت نفوس القيسيين عليه حقداً ، وغدوا يترقبون موته بنافذ الصبر ، وكان هو نفسه يشعر بذلك ، ومن دلائل هذا ما يذكره المالكى من أن جارية من جوارى بشر قالت وهو يعانى سكرات الموت : « يا شماتة الأعداء ! فقال لها : قولى للأعداء لا يموت ! » حتى لا يستطيرهم الفرح . وكأنّ بشراً خشى أن يقيم هشام على البلد رجلا قيسياً بعده ، فترك عليها العباس ابن باضعة الكلبى واليا ورجا أن يثبته هشام فى الولاية [4]. ولكن هشاما بن عبدالملك انتهز فرصة وفاته ليولى مكانه قيسياً هو عبيدة بن عبد الرحمن ، وقد وقع دخوله افريقية على نفوس الكلبية موقع الصاعقة ، حتى أن رأسهم العباس بن باضعة خارت قواه ولم تحمله رجلاه حينما بلغه النبأ [5] (١١٠هـ / ٧٢٨ - ٧٢٩م) .

المغرب أثناء خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/٧٢٤-٧٤٣م)

ولم يكن عبيدة بن عبد الرحمن على اقتداره وحسن رأيه بأحسن معاملة للبربر ممن سبقوه ، فقد أسرف فى مغازاة من تعدّد من قبائلهم وسبى نسائهم حتى ليقال إنه عند ما بارح افريقية يريد المشرق سنة ١١٤هـ/٧٣٢ — ٧٣٣م « كان فيما خرج به من العبيد والإماء ومن الجوارى المتخيرة ٧٠٠ جارية ، وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة

---

(١) نفس المصدر والصفحة .
(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ، ص ٢٦ .
(٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٣٦ — ابن الابار ، الحلة السيراء ، ص ٤٧
(٤) المالكى ، رياض النفوس ، ورقة ٣٥ (ب) .
(٥) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٧

والآنية[1] » مما يدل على عسفه للناس وشدته معهم[2]، وكان إلى ذلك شديد الوطأة على كل من انتمى إلى آل نصير من العرب اليمنية والبربر الزناتية، فآذى نفراً كبيراً منهم، وكانوا من كبار أهل البلاد وأصحاب السلطان على نواحيهم[3].

بيد أن عبيدة كان يشعر أن الحال فى إفريقية لم يكن على مايرام، وأن ريح الثورة كانت تهب على البلاد، بسبب سوء سياسته وسياسة من سبقه من ولاة إفريقية، ولهذا سأل هشاما أن يعفيه من الامارة لغير سبب ظاهر، فأعفاه، وبارح افريقية الى المشرق بعد أن غل من المغرب من المال شيئاً كثيراً، وبعد أن استبد بالبربر وباليمنية استبداداً بالغاً.

عبيد الله بن الحبحاب

وأقام هشام عامله على خراج مصر عبيد الله بن الحبحاب الذى ذكرناه والياً على إفريقية والأندلس فى ربيع الآخر سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م، وبهذا أصبح هذا الرجل يحكم غرب الدولة الاسلامية كله من حدود مصر إلى البرانس، وهى مساحة تزيد على نصف الدولة الاسلامية كلها. وكان بسط سلطان ابن الحبحاب على هذا النحو خطأ فادحا، لأن الرجل كان رغم ثقافته الواسعة قيسياً مبالغاً فى قيسيته[4]، ثم إنه كان إلى ذلك بعيداً عن الكياسة وبعد النظر اللازمين لرجل توكل إليه أمور مثل هذا الملك الشاسع يفعل به ما يريد.

كان أول ما فعله عبيد الله هو أن قسم ولايته على بنيه وأنصاره: جعل ابنه اسماعيل على السوس، وولى ابنه عبد الرحمن على مغازى السودان، وجعل على طنجة رجلا من أتباعه يسمى عمر بن عبد الله المرادى، وجعل على الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى، واحتفظ لنفسه بافريقية لكى يكون فى مكان قريب من المشرق يستطيع أن يدير منه ولاياته جميعا[5].

---

(١) نفس المصدر، ص ٢١٧

(٢) ابن الأبار، الحلة السيراء (طبعة دوزى)، ص ٤٨، ٤٩

(٣) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١٧ — الأخبار المجموعة ص ٣١ — ٣٢ — ابن عذارى، البيان المغرب ج ١ ص ٣٩ — النويرى، نهاية، ص ٣٣ — السيوطى، تاريخ الخلفاء (طبعة القاهرة) خلافة هشام بن عبد الملك: ص ٤٨ — ٤٩

(٤) النويرى، نهاية، ص ٣٣ — المقريزى، خطط (طبعة ڤيت)، ج ٢ ص ٦١ — ٦٣

(٥) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١٧

وكان عبيد الله بن الحبحاب كغيره من القيسية شديد العصبية العربية لايكاد يقيم لغير العرب وزنا ، فجعل يعسف البربر لا يكاد يحفل لمشاعرهم ، وجعل كذلك يتتبع من وجد من اليمنية لايكاد يعفيهم من عذاب شديد ، وامتد أذاه إلى أتباعهم ومواليهم وفيهم أنصار بنى نصير الغاضبون لما أصاب هذا البيت الكبير من الأذى على يد هؤلاء القيسيين ، وكان من هؤلاء رجل يسمى عبد الأعلى بن جُرَيج الافريقى وكان أصله رومياً ، وكان مولى لابن نصير ، وكان قد كون لنفسه عصبية بربرية كبيرة فى نواحى طنجة[1].

فاذا بلغ عسف القيسية ورئيسها فى الغرب الاسلامى كله عبيدالله بن الحبحاب هذا المبلغ ، فقد بدأت أنفس البربر تتطلع إلى الخلاص ، ولو قد كان عبيد الله وعماله على شىء من بعد النظر لاستشعروا اضطراب النفوس فى المغرب جميعه ، ولكنهم كانوا كما قلنا لايكادون يحفلون لمشاعر هؤلاء البربر ، حسباناً منهم أنهم لن يستطيعوا قبلهم شيئاً . ويبدو أن قضاء بن الحبحاب على ثورة أهل مصر قبل ذلك قد هون فى نظره شأن غيرهم من الشعوب التى كانت خاضعة لحكمه .

وبلغ من استخفاف بن الحبحاب بالبربر أن أراد اعتبارهم جميعاً فيئاً للمسلمين ، من أسلم منهم ومن لم يسلم ، وكان الولاة قبله يقصرون هذا اللون القاسى من المعاملة على من لم يسلم من البربر ، من استأمن منهم ومن لم يستأمن ، فأبى عبيد الله إلا أن يزيد الأمر سوءاً بوضع مسلمى البربر موضع العبيد الذين يملك المسلمون رقابهم ، ومضى فى تنفيذ ذلك ، فكتب إلى رجاله بحصر خمس البربر واعتبارهم رقيقاً[2] ، ولم يكن عبيد الله ليستطيع أن ينفر البربر ويسيء اليهم بأكثر من هذا ، فهؤلاء قوم أسلموا ومنهم من اشترك فى جيوش المسلمين غازيا واندرج اسمه فى الديوان ، فكيف يعتبر بعد ذلك عبداً رقيقا ؟

ولو اقتصرت المعاملة السيئة على البربر ونصارى الأندلس وحدهم لكان من الميسور تلافى الخطر إذا بقى العرب جميعاً يداً واحدة — وهم لم يكونوا

---

(١) ابن عبدالحكم ، فتوح ، ص ٢١٨

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٤

قليلين فى إفريقية والأندلس — ولكن ابن الحبحاب كان مسرفا فى قيسيته لا يكاد يعفى اليمنيين من شر ، فتغيرت نفوسهم عليه ، ولما كان أكثر عرب البلاد يمنيين ، فقد وقف القيسيون بسبب سياسة رئيسهم ابن الحبحاب من أهل البلاد جميعاً — عربا وغير عرب — موقف العدو ، وغدا هؤلاء لا ينتظرون إلا الفرصة الملائمة ليتقلبوا على ابن الحبحاب والقيسية بل على العرب جملة .

ولم يكن الدعاة الذين تحدثنا عنهم ينتظرون فرصة هى أعظم من هذه ، فنفوس أهل البلاد تغلى والعرب منقسمون على أنفسهم ، وليس أهون عليهم فى مثل هذا الظرف من توجيه البربر وإرشادهم إلى طريق العمل . وسنرى من حوادث الثورة التالية أنها كانت مرتبة مقدرة ، وأن أيدى محركيها من خوارج العرب كانت ظاهرة لا تحتاج إلى طويل بحث ، وأغلبُ الظن أن هؤلاء الخوارج وفقوا فى إقناع البربر بأن الله لم يقصر حق القيادة والامامة على العرب وحدهم ، بل جعله حقاً مطلقاً لكل مسلم صالح ، وأن حكام العرب حادوا عن الطريق القويم ، وأنهم — أى البربر — إذا وثبوا بالعرب لم يكونوا فى ذلك إلا منفذين لتعاليم الاسلام كما وردت فى القرآن ، وسنرى ذلك بوضوح حينما يعلن رئيسهم ميسرة نفسه إماما ويتسمى بالخلافة ، وحينما يرفعون المصاحف على الأسنة كما كان خوارج المشرق يفعلون[1] .

ويبدو أن أعداد هؤلاء الدعاة كانت عظيمة فى المغرب ، لأن الأمان عند قبائله وفى شعابه كان ميسوراً ، ولأن البربر كانوا ساخطين تتأجج نفوسهم بالثورة على العرب ، فكثر مجىء هؤلاء الخوارج الى المغرب واختفاؤهم بين قبائل البربر ، ولم يلبثوا أن قلبوا المغرب كله رأساً على عقب . ولما كان هؤلاء الدعاة لا يستطيعون أن يقيموا فى افريقية أو فى المغرب الأوسط لقرب هذه النواحى من مقام عامل بنى أمية فى القيروان ، فقد تخيروا لمقامهم ولدعواتهم نواحى المغرب الأقصى البعيدة : اقليم طنجة ونواحى السوس الأقصى بوجه خاص ، إذ كانت هذه النواحى مواطن ثلاث من أكبر القبائل الزناتية وأكثرها استعداداً للثورة وهى غمارة وبرغواطه ومكناسة ، وانضمت اليها كذلك أعداد قليلة من صنهاجة .

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٢

ميسرة وبدء الثورة في اقليم طنجه

وكان في القيروان إذ ذاك رجل من قبيلة مَطغرة، يسمى مَيْسرة، ويتفق معظم المراجع العربية على تسميته بالحقير أو بالحقور، وتذهب الى أنه كان يبيع الماء في مساجد القيروان [١]، وليس ذلك بصحيح، لأن ابن خلدون يؤكد أنه كان رئيس مطغرة [٢] أو لعله كان ينتسب الى بيت كبير من بيوت هذه القبيلة، ولأن ماسيلي من الأحداث يدل على أنه كان رجلا ذا عصبية لها خطرها، والثابت أن ميسرة كان من رواد المجالس العلمية في مساجد القيروان، وانه كان ذكياً بعيد المطامع شديد الميل للمغامرة، فوجدت مبادىء الخارجية الصفرية سبيلها الى نفسه فاعتنقها، ووقر في نفسه أن ينشرها في بلاده، واتجه بصره الى مواطن مطغرة في اقليم طنجه، فمضى الى هذه الناحية واندس بين جماعات قومه مطغرة، وأخذ يكسب لنفسه الأنصار ويؤلبهم على العرب وحكامهم، فلم يلبث أن استمالهم الى رأيه، فرفعوا راية العصيان، ولم تلبث الدعوة أن امتدت حتى شملت مكناسة، فأقبلت بجموعها وانضمت الى ميسرة وقومه [٣]. ولم تلبث برغواطة أن أعلنت الخروج يقودها داعية خارجي لانكاد نعرف عنه شيئاً وهو طريف بن شمعون ابن يعقوب بن اسحاق ومعه ابن له غلام يسمى صالح [٤]. وانضمت القبائل الثائرة بعضها الى بعض وجعلت تترقب الفرصة لاعلان الثورة والخروج على بني أمية، وكان عامل طنجة لعبيد الله بن الحبحاب قيسياً شديد العصبية لقيس وللعرب هو عمر بن عبد الله المرادي، فمضى يعسف البربر لا يكاد يحسب لشعورهم حساباً، وكان ميسرة إذ ذاك نشيطاً في دعوته، فأعانه جهل عمر بن عبد الله المرادي وسوء سياسته على كسب قلوب الناس.

---

(١) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١٨ — البكرى، المسالك والممالك، ص ١٣٤ — النويرى، نهاية، ج ١ ص ٣٤

(٢) ابن خلدون، العبر، (طبعة دى سلاين)، ج ١ ص ١٥٠

(٣) ابن خلدون (طبعة دى سلاين) ج ١ ص ١٦٧

(٤) البكرى، المسالك والممالك، ص ١٣٥

ولم تلبث الفرصة أن سنحت لميسرة وأصحابه للخروج على العرب علانية ، ذلك أن عبيد الله بن الحبحاب أرسل قائده حبيب بن أبى عبيدة سنة ١٢٢ هـ / ٧٣٩ م [١] فى حملة الى صقلية ، وأصحبه خيرة جنده ، فعجل ميسرة وأصحابه يتهزون فرصة ابتعاد جند عبيد الله بن الحبحاب فيما وراء البحر ، فجمعوا أنصارهم ، وتسارعوا نحو طنجة وواليها عمر بن عبد الله المرادى ، واستولى ميسرة عليها وقتل المرادى ، وانضم اليه عبد الأعلى بن جريج الافريقى ومن معه من الأفارقة وموالى بنى نصير ، فأقامه والياً على طنجه ، ثم سار الى نواحى السوس واستولى عليها ، وقتل واليها اسماعيل بن عبيد الله ابن الحبحاب ، وبهذا خرج المغرب الأقصى كله من يد المسلمين ، وتحرج مركز عبيد الله بن الحبحاب فى افريقية وساء مركز المسلمين فى الأندلس [٢] .

وجمع عبيد الله بن الحبحاب نفراً من خيرة جنده وقود عليهم رجلا من كبار عرب افريقية هو خالد بن حبيب الفهرى ، وبعث الى حبيب بن أبى عبيدة يتعجل عودته ، فلم يكد يعود ، حتى بعثه ومن معه من الجند ليشدوا أزر خالد ، والتقى العرب بقوات ميسرة على مقربة من طنجة ، فانهزموا وقتل منهم نفر عظيم ، وعاد ميسرة الى مركزه فى طنجة منصوراً ، ثم ادعى الخلافة وتسمى بها وبويع عليها [٣] . ويبدو أن النصر ذهب بصوابه ، فأساء السيرة فى جماعته ، فلم يلبثوا أن قتلوه وولوا مكانه واحداً من كبار رؤسائهم هو خالد بن حميد الزناتى ، وكان خيراً من ميسرة وأقدر [٤] (١٢٢ هـ / ٧٣٩ — ٧٤٠) .

---

(١) ابن خلدون ، العبر (طبعه دى ساين) ، ج ١ ص ١٥١ — ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٨

(٢) انظر عن ميسرة : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٨ — ٢١٩ — ابن القوطيه ، افتتاح ، ص ١٤ — ١٥ — ابن عذارى ، البيان ج ١ ، ص ٣٩ — ابن الاثير ، الكامل ج ٥ ص ١٤٢ ، ابن خلدون ، العبر (طبعة دى ساين) ج ١ ، ص ١٣٧ و ١٥١

(٣) النويرى ، نهاية الارب ، ص ٣٤ — ٣٥

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٨

هنا يحاول فورنيل الدفاع عن ميسرة ، على عهده من امتداح كل ثائر على المسلمين ، ويبدو فى هذه المناسبة افتعاله وتكلفه بصورة واضحة جدا :

cf : Henri Fournel, *Les Berbères*, I. pp. 288-289.

وتحرج مركز ابن الحبحاب فى افريقية ، فبعث الى عقبة بن الحجاج السلولى عامل الأندلس يطلب اليه الاسراع لعونه بمن يستطيع من الجنـــد ، فأسرع الرجل ، وحاول مهاجمة مواقع البربر فى طنجة فلم يستطع ، وعاد أدراجه[1].

هزيمة الأشراف أوائل سنة ١٢٣ هـ (٧٤٠/٧٤١ م)

وجيّش ابن الحبحاب جيشاً آخر احتفل فى تكوينه وجعل فيه نفراً عظيما من أشراف عرب افريقية والظاهرين منهم ، ورمى بهم قوات خالد بن حميد الزناتى ، فلم يكد هذا الجيش العربى — يقوده خالد بن حبيب الفهرى — يقارب طنجة ويلقى البربر ويشتد القتال بينه وبينهم حتى فجأه خالد بن حميد من خلف بعسكر عظيم ، فانهزم بعض أصحاب خالد بن أبى حبيب وكره هو أن ينهزم ، فألقى بنفسه هو وأصحابه فى أوار المعركة ، فقتل هو ومن كان معه ولم يسلم منهم أحد : « وقتل فى هذه الموقعة حماة العرب وفرسانها ، فسميت وقعة الأشراف وانتقضت البلاد ومرج الناس ، واختلفت الأمور على عبيد الله ، فاجتمع الناس وعزلوه عن أنفسهم[2] » وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك فغضب غضبة « مضرية » لفظاً ومعنى ، وقرر إرسال جيش عربى عظيم الى افريقية ليؤدب البربر ويقضى على ثورتهم ، وعزل عبيد الله بن الحبحاب فى جمادى الأولى سنة ١٢٣/ ٧٤٠ وقد أصاب بعزله إياه ، لأن الرجل كان قد تمادى فى سوء التصرف بعد هذه الهزيمة ، وكان دافعه الأول الى ذلك الرغبة فى الانتقام لمقتل ابنه اسماعيل[3].

ويبدو أن ابن الحبحاب شك فى أن لعرب افريقية يدا فى هذه الهزيمة ، فاتّهم نفراً منهم بأنهم اتفقوا مع البربر والأفارقة على إيقاع الهزيمة بجيشه ، وكانت

---

(١) Isidori Pacensis, *Chronicón* : *España Sagrada, VIII*. Cap. 61 in p 302

(٢) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ص ٣٥

(٣) « وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك ، فقال : أقتل هؤلاء الرجال الذين كانوا يقدمون علينا من الغرب ؟ قيل : نعم ! فقال : والله لأغضبن لهم غضبة عربية » نفس المصـــدر والصفحة .

جماعة من هؤلاء العرب الافريقيين تقيم فى تلمسان يرأسها موسى بن أبى خالد، أحد موالى معاوية بن حديج أحد كبار قادة العرب الذين ساهموا فى فتح افريقية بنصيب كبير، وكان عامل تلمسان «وقد اجتمع عليه من تمسك بالطاعة، فقبض عليه ابن الحبحاب وقطع رجله ويده [1] » ثأراً لمقتل ابنه اسماعيل فأثار على نفسه بذلك العرب الافريقيين أجمعين، ودفعهم الى الخروج عليه صراحة، واضطربت أمور البلاد كلها. وكان هذا — فى الغالب — هو ماحدا بهشام ابن عبد الملك الى الاسراع فى عزل ابن الحبحاب واستبدال غيره به [2]، وتم ذلك فى جمادى الأولى سنة ١٢٣ هـ/٧٤٠ م.

كلثوم بن عياض القشيرى
١٢٣ هـ / ٧٤١ م

استقر رأى هشام بن عبد الملك على أن يعهد فى ذلك إلى رجل من زعماء القيسية توسم فيه القدرة وبعد النظر وهو كلثوم بن عياض القشيرى، ولم يكن هشام بأحسن حظا فى هذا الاختيار منه يوم عهد فى إفريقية والأندلس الى ابن الحبحاب: كان كلثوم بن عياض قيسيا شديد الاعتداد بقيسيته، وكان فى نفسه الى جانب ذلك غرور جعله يظن أن البربر قوم لاحيلة لهم فى الحرب، وأنهم اذا كانوا قد انتصروا على عبيدة بن عبد الرحمن وعلى عبيد الله بن الحبحاب، فانما يرجع ذلك الى جهل هذين وقلة اقتدارهما. وكان الخليفة قد أوسع عليه فى النفقة، وأمر عمال مصر وطرابلس وافريقية أن ينضموا إليه بكل مايستطيعون من رجال وخيل وعدة، فزاده ذلك غرورا. خرج كلثوم بعدد عظيم من دمشق ومر بمصر فاستصحب عدداً من خيرة جندها وكذلك فعل بطرابلس وافريقية. فاجتمع له جيش عظيم [3] جعل على مقدمته قائد خيله بلج بن بشر القشيرى [4]، وكان فارسا شهما إلا أنه كان أشد غروراً

---

(١) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١٨

(٢) نفس المصدر والصفحة — النويرى، نهاية الأرب، ص ٣٥

(٣) ابن عبد الحكم. فتوح، ص ٢١٨

(٤) ابن الحكم، فتوح ص ٢١٩—٢٢٢ ويقال ان بلجا كان ابن أخيه: النويرى، نهاية الأرب، ج ١ ص ٣٥ وراجع تعليق فورنل على هذا الجيش:
H. Fournel, *Les Barbères* : I, p 292
ويقتصر ابن عذارى فى الجزء الأول من تاريخه على ذكر عدد الشاميين فى هذا الجيش =

وعصبية من كلثوم ، وجعل على رجالته ثعلبة بن ثوابة الجذامى ، وكان من غلاة القيسية كذلك .

ويبدو أن كلثوما عول على القتال حتى الموت ، لأنه أوصى بأن يخلفه بلج فى القيادة إذا أصابه شيء ، فاذا قتل بلج خلفه ثعلبة بن ثوابة .

العرب الافريقيون

كان جند افريقية إذ ذاك مواقفين للبربر بناحية طنجة فى انتظار المدد من دمشق ، وكانت نواة هؤلاء الجند جماعة من العرب طال بهم المقام والعمل فى افريقية حتى أصبحوا يعتبرون أنفسهم أفارقة لايطمئنون إلى أحد من القادمين من المشرق . مثلهم فى ذلك مثل عرب الأندلس إذ ذاك : كانوا يعتبرون أنفسهم « أهل البلد » ويتسمون بالبلديين ؛ وقد تكونت جماعات العرب الأفارقة من جند العرب الأول الذين استقروا أثناء الفتح أو بعده فيما راقهم من نواحى المغرب ، وقد جرت عادة هؤلاء العرب أن يستقروا فى النواحى بمن انضم إليهم أوصار فى ولائهم من البربر ، فاعتُبروا مواليهم واندمجوا فيهم مع الزمن ، وبهذا كثرت جموع هؤلاء العرب الافريقيين وأصبحوا قوة سياسية لها خطرها.
ولما كان هؤلاء العرب الأول هم الذين فتحوا البلاد ، فقد أصبحوا يعتبرون أنفسهم أصحابها وملاك نواحيها ، لا يكاد يجرؤ غيرهم من غير قبائلهم على الاستقرار معهم فيها . ووفد إليهم من بلاد العرب طوائف من أبناء عصبيتهم وانضموا إليهم فاشتدت بهم سواعدهم ، ولما كان معظم من شارك فى فتح افريقية من العرب يمنيين فقد كثر جمع اليمنيين فى افريقية ، كما كثروا فى الأندلس ، وانضمت إليهم جماعات من البربر الزناتية ، وأخذوا ينظرون للقيسيين خاصةً نظرتهم إلى عدو دخيل . ومن هنا نفهم السر فى هذا النفور العنيف الذى أظهره عرب افريقية عند ما أخذ ولاة القيسيين يتعاقبون على افريقية

= وم ١٢ ألفاً من الفرسان كان يقودهم بلج بن بشر (البيان ، ج ١ ص ٣٨) ، ثم يذكر فى الجزء الثانى أن عدة الجيش كله كانت ٣٠ ألف (البيان ، ج ٢ ص ٣٠) ويؤيده فى ذلك ابن القوطية (افتتاح الاندلس ، ص ١٤) ، أما ابن حيان فيجعل عدة الجيش ٧٠،٠٠٠ (أورد تلك الرواية المقرى فى نفح الطيب ، ج ٢ ص ١٢) .

تصاحبهم جماعات قيسية قليلة تريد الاستقرار فى البلاد . ولنضف الى ذلك أن عدداً عظيماً من فاتحى افريقية أنشأوا فيها أسراً من أهلهم وذريتهم ، فأصبحت هذه الأسر مع الزمن ذوات جاه وسلطان بفضل من التف حولها من العرب والموالى والأتباع ، وأصبحت لها رياسة على جماعات العرب والبربر فى النواحى التى استقرت فيها ، ومن بيوت هذه الأسر بيت بنى عقبة بن نافع وكان أقواها وأعظمها ، وبيت معاوية بن حديج ، وبيت بنى نصير . وكان لهذه البيوت الثلاثة النصيب الأوفى من السلطان فى افريقية خلال العصر الأموى ، بل صارت الأمور أخيراً الى بيت عقبة بن نافع ممثلا فى شخص عبدالرحمن بن حبيب بن عقبة [1] .

وكان هؤلاء العرب الأفارقة « البلديون » مقيمين جماعات ، كل جماعة فى ناحية عليهم رئيس منهم يقوم بشئون الاقليم لحساب عامل إفريقية فى القيروان . وقد سجل المؤرخون لنا منهم جماعات قوية فى طرابلس وسبرت وقابس والقيروان ، ومن شخصيات هؤلاء العرب الافريقيين فى ذلك الحين : حبيب بن ميمون (سَبرَت) وعبد الرحمن بن عقبة الغفارى ، ومسلمة بن سوادة القرشى (القيروان) وصفوان بن أبى مالك (طرابلس) وسعيد بن بجرة الغسانى (قابس) وحبيب بن أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ، ويبدو أنه كان رأس هؤلاء العرب الأفارقة جميعاً ، وكان مقيما إذ ذاك بجموع من هؤلاء العرب عند طنجه مواقفاً لخالد بن حميد الزناتى زعيم البربر الثائرين وخليفة ميسرة [2] .

ولم تكن العلائق بين هؤلاء العرب الأفارقة النازلين مدائن افريقية وأريافها وبين البربر من أهل البلاد على ما يرام ، لأن العرب جميعاً كانوا لا يطمئنون إلى البربر بعد هذه الحرب الطويلة التى كانت بين الجانبين أيام الفتح . ولأن العرب الأفارقة كانوا يعدون أنفسهم سادة البلاد وأهلها ، ولأنهم كانوا الى ذلك عماد الحكام وولاتهم على النواحى ، فكرههم البربر لذلك وحمَّلوهم تبعات مظالم

(١) راجع تراجم عقبة بن نافع ورويفع بن ثابت الأنصارى ومعاوية بن حديج وربيعة ابن عباد الديلى وزياد بن الحارث الصداقى وأبى عبد الرحمن بن بسر بن ارطأة وأبى عبد الرحمن عبد الله بن يزيد (الافريقى) ومن بعده من التابعين فى : المالكى ، رياض النفوس ، ج ١ ورقة ١٠ وما يليها — ابن الناجى ، معالم الايمان ، ج ١ ص ٩٩ وما يليها .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٩ — ٢٢٢

هؤلاء الحكام، وكان من هؤلاء العرب البلديين قدامى معظمهم من اليمنيين منذ أيام موسى بن نصير وبنيه وجُدُدا غالبيتهم من القيسية وكان الفريقان متعاديين كما لاحظنا[1].

لهذا كان طبيعياً أن تكون ثورة البربر فى اقليم طنجة إيذانا بثورة عامة جديدة من البربر جميعاً على من بين أظهرهم من العرب سواء أكانوا من رجال الدولة وجندها أو عربا مستقرين مسالمين.

ثورة البربر على العرب فى طرابلس

وصل كلثوم بن عياض إفريقيـــة، ولم يشأ أن يريح بالقيروان، بل أراح ببليدة سَبيبة على مقربة منها (شوال ١٢٣ / أغسطس ٧٤١). ثم انصرف بجموعه إلى ناحية طنجة مخلفاً على إفريقية عبد الرحمن بن عقبة الغفارى ومسلمة بن سوادة القرشى. فلم يكد يبتعد عنها حتى نهض زعيم من زعماء زناتة يسمى عكاشة بن أيوب الفزارى — وكان من الخارجية الصفرية — فجمع جموعه بناحية قابس، وأرسل أخاً له فى نفر من البربر، فحصروا حبيب بن ميمون ومن معه من العرب فى سبرت، وأقام محاصراً لهم حتى خف لنجدتهم صفوان ابن مالك رأس عرب طرابلس، فانهزم البربر الى قابس، وكان عرب القيروان قد علموا بالأمر وخفوا مع أميرهم مسلمة بن سوادة الى قابس لنجدة عرب هذه الناحية والقضاء على ثورة البربر، والتقى الجمعان بأحواز قابس، فانهزم العرب وعادوا مفلولين الى القيروان حيث أقبل البربر يحاصرونهم بها[2].

---

(١) تذكر المراجع فى أخبار ولاية عبيد الله بن الحبحاب قصة تصور لنا هذا العداء بصورة واضحة، ملخصها أن عبيد الله لم يكد يلى افريقية حتى قدم عليه عقبه بن الحجاج السلولى، وكان الحجاج — أبو عقبه — قد اعتق الحارث جد عبيد الله، أى أن بنى الحارث — وهم بنو الحبحاب وغيرهم — كانوا موالى الحجاج السلولى وبنى سلول، فقام ابن الحبحاب لعقبة وشرفه، فأنكر أولاده ذلك، وخشوا أن يحط من قدرهم فى نظر عرب افريقية، ولاموا أباهم فى ذلك. فانتظر ابن الحبحاب حتى اليوم التالى، فلما اجتمع الناس وعمر المجلس استقدم عقبة وأعلن اليه أمام الناس أنه وليه وخاطب أولاده مؤنباً اياهم على عقوقهم نحو الحجاج وبنيه، فخجل الأولاد من أنفسهم. وهذا يدل على أن أولاد عبيد الله كانوا يعتبرون أنفسهم عربا أفارقه، أى من أصحاب البلاد، فكرهوا أن يسودهم هذا المشرق المقبل ويحط من قدرهم وهم فى هذا يعبرون عن شعور العرب الأفارقة عامة نحو من كان يقبل من العرب، انظر: الاخبار المجموعة، ص ٢٦ — ٢٧

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢١٩

بهذا زاد مركز عرب إفريقية حرجا : انهزمت قواتهم عند قابس وحاصرهم البربر فى القيروان ، وانهزمت قواتهم عند طنجة قبل ذلك ، وأقام خالد بن حميد الزناتى مواقفاً لمن بقى منهم على نهر سبو ، وأخذ يؤلب بقية البربر عليهم ويستعد لمعركة فاصلة جديدة بينه وبينهم .

الخلاف بين العرب الأفارقة وكلثوم بن عياض ومن معه من القيسية

فى هذه الظروف العصيبة كان كلثوم بن عياض ومن معه يقتربون من طنجة ليلقوا البربر ، ولو قد كان كلثوم حسن السياسة لتودد إلى عرب إفريقية وكسب قلوبهم حتى يقف العرب جميعاً جبهة واحدة أمام الخطر الداهم ، ولكنه لقى هؤلاء العرب بمعاملة نفرتهم منه وصرفتهم عن عونه ، وكان كما قلنا قيسياً جافياً شديد الاعتزاز بنفسه : أنف أن ينزل القيروان وأراح فى سبيبة ، ثم تقدم نحو طنجة وبعث يأمر حبيب بن أبى عبيدة رأس عرب إفريقية بأن يقيم مكانه لا يصنع شيئاً حتى يقدم عليه . وكان بلج بن بشر على مقدمة كلثوم كما قلنا ، ولم يكن أقل عصبية ولا كبرياء من كلثوم ، فلم يكد يلقى عبيدة حتى أهانه وحقره ، وأعلن إليه أن الشآمية قد عولت على المقام فى إفريقية واتخاذها داراً ، فحز هذا فى نفس الأفارقة وأخافهم على ما كان لهم من المكانة فى البلاد[1] . وبعث حبيب بن أبى عبيدة إلى كلثوم يشكو إليه ابن أخيه ، فلم يلق عنده إنصافا كافياً ، فامتلأت نفس أبى عبيدة بن عقبة بن نافع ونفوس من معه من العرب الأفارقة سخطاً على الشآمية وخوفا منهم . ثم وصل كلثوم إلى نواحى طنجة ولقى حبيباً ، فعامله نفس المعاملة التى عامله بها بلج قبل ذلك ، وتقدم أبو عبيدة بن عقبة (ابو حبيب) يريد نصح كلثوم فرفض نصيحته وأهانه ، وبهذا انقسم المعسكر العربى قبل المعركة إلى فريقين ينطوى أحدهما على اللدد نحو الآخر : فريق العرب الأفارقة على رأسهم أبو عبيدة بن عقبة وابنه حبيب بن أبى عبيدة وحفيده عبد الرحمن بن حبيب ، وفريق الشآمية المقبلين وعلى رأسهم

---

(1) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٤١

كلثوم بن عياض وبلج بن بشر ، فكان لهذا الانقسام أسوأ الأثر فى مجرى الحوادث [1] .

وكأنما أراد هشام بن عبد الملك أن يزيد الموقف تعقيداً ، فأمر كلثوم أن يسير وفق التوجيهات التي يرسمها له هرون القرنى مولى معاوية بن هشام ومغيث الرومى مولى الوليد ، وقد أمره الخليفة بهذا بحجة أنهما أعرف ببلاد إفريقية [2] ، وكان أولى به أن يأمره بالاتفاق مع العرب الأفارقة ، لا بطاعة هذين المولين اللذين سيزيدان الأمر تعقيداً وحرجا . ويبدو أن هشاما أراد أن يكونا رقيبين على كلثوم ، لأن الجيش الذى كان معه كان عظيما جداً ، كانت عدته تبلغ السبعين ألفاً على قول بعض المؤرخين .

وليس أدل على ما كان بين الحيين من النفور من أن العرب الأفارقة كانوا يغلقون أبواب مدنهم اذا سمعوا بمقدم الشامية ، ويبدو أن بلجاً لم يدخر وسعاً فى زيادة نفورهم ، فجعل يقول انه انما أتى ليستقر بمن معه فى افريقية كما ذكرنا ، ولم يكن ليستطيع أن يثير نفوس الأفارقة بأكثر من هذا ، لأن معظم من كان قد استقر فى افريقية الى الآن كانوا يمنية كلبية ، وكان مجرد التفكير فى اقرار بضعة آلاف من القيسية معهم فى نواحيهم كافياً لاثارة نفوسهم واذكاء نار العداوة فيها ، هذا الى أن القيسية كانت فيهم جفوة وقلة كياسة وشدة فى العصبية ، فكانوا لا ينزلون بلداً الا أثاروا أهله — عربا أو غير عرب — هكذا فعلوا فى خراسان وفى شمال افريقية وفى الأندلس .

---

(١) يقول ابن عبد الحكم فى وصف هذه الحالة النفسية التى سادت الجانبين : « وكان كلثوم حين خرج الى البربر قد قدّم بلج بن بشر القيسى على مقدمته فى الخيل ، فلما قدم على حبيب رفضه وأهان منزلته ، ثم قدم كلثوم فتلقاه حبيب فتهاون به أيضاً ، ثم خطب كلثوم الناس على دبدبان له فطعن فى حبيب وشتمه وأهل بيته . . . » ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢١٩ بل بلغ من اضطراب النفوس أن دار القتال بين الجانبين قبل أن يلقوا البربر ، ولم يستطع كلثوم اقرار السلام الا بعد جهد . وكان بلج بن بشر من أكثر الناس عصبية لقيسيته ، وهو المسئول عن كثير مما نزل بالعرب فى افريقية والأندلس من البلاء فى ذلك الحين : ابن عذارى . البيان ج ١ ص ٤١ — ٤٢

(٢) الأخبار المجموعة ص ٣١

هزيمة العرب عند بقدورة

على هذه الحال التقى الجيش العربى مع البربر يقودهم خالد بن حميد الزناتى عند بليدة تسمى بقدورة أو نقدورة على مقربة من تاهرت على مجرى نهر سبو[1]، وقد رأى هرون القرنى ومغيث الرومى أن أعداد البربر عظيمة جداً ، وخافا على العرب منها ، فنصحا كلثوما بأن يضرب حول معسكره خندقا ، ولكن الغرور ملأ نفس بلج ، وظن أنه إذا جال بخيله لم يلبث البربر أن يتفرقوا ، وغاب عنه أن البربر قوم ذوو جلد على الحرب وحيلة فى الميدان ، فصنعوا أكياسا من الجلد ملأوها بالحجارة ، وأخذوا يهزونها بشدة ويقذفونها على رؤوس الخيل ، فنفرت وروعت ، ولم يستطع الفرسان القتال عليها ، فأمرهم كلثوم أن يترجلوا ، ولم يكن البربر يرجون خيراً من ذلك ، فانقضوا على العرب وأحاطوا بهم ، وأعملوا فيهم السيوف ، وتبدت طلائع الهزيمة لكلثوم ، فخاطب حبيب بن أبى عبيدة وعرض عليه قيادة الجيش ، فقال حبيب : قد فات الأمر ! ثم اشتد القتال وأحاط البربر بالعرب حتى كادوا يأتون عليهم أجمعين ، فلما رأى حبيب ذلك عزم على الاستشهاد وأوصى ابنه عبد الرحمن أن يلزم بلجا ، وقاتل حتى قتل ، وهكذا أبدى هذا العربى الفهرى من الشهامة والبسالة ما يملك النفس ، وراح ضحية شدة القيسيين وعصبيتهم . وكان بلج قد رفض أن ينزل عن جواده وبقى معه نحو عشرة آلاف ، فحملوا على البربر فى عنف حتى اخترقوا صفوفهم ووصلوا خلفهم ، ثم استدارلهم البربر وكاثروهم حتى اضطروهم إلى الفرار ، ففروا — يتقدمهم بلج — فى اتجاه طنجة . وأما بقية العرب فقد أحاط بهم البربر

---

(١) بين المؤرخين خلاف حول مكان هذه الموقعة ، فيذهب الرازى الى أنها كانت على نهر ملوية (روى ذلك ابن خلدون ، العبر ، ج ١ ص ١٥٢) ، ويذهب ابن عذارى وابن خلدون الى أنها كانت على نهر سبو (ابن عذارى البيان ج ١ ص ٤٧ وابن خلدون ، العبر ، ج ١ ص ١٣٧) ؛ أما صاحب الأخبار المجموعة فيذهب الى أن الموقعة كانت عند بليدة تسمى نقدورة أو بقدورة (الأخبار ، ص ٣١) ، وجعلها ابن القوطية بقدورة (بالباء) . انظر الافتتاح ص ١٥) . ولم نجد بليدة بهذا الاسم فى هذه الناحية من افريقية ، وربما كانت صحة الاسم بقدورة بالباء ، فقد ذكر ابن خلدون بليدة بهذا الاسم دون أن يحدد موقعها . راجع : العبر (طبعة دى سلاين) ، ج ٤ ٣٥٤ وانظر أيضاً :

FOURNEL, *Les Berbères*, I. p. 294 n. 1.

واشتدوا فى قتلهم حتى قتل هرون ومغيث وحبيب بن أبى عبيدة وكلثوم نفسه ، وانتهت المعركة بهزيمة كبرى للعرب ، حتى ليؤكد المؤرخون أن ثلث هذا الجيش العربي الكبير قد قتل وأن ثلثه الآخر راح أسيراً ، وأما الباقون فقد تفرقوا فلولا مهزومة لا تكاد تلوى على شيء بعد السلامة[1] (١٢٤ هـ) .

أما بلج وأصحابه من الشآمية فقد انهزموا الى الغرب « وأتبعهم أبو يوسف الهوارى ، وكان طاغية من طواغى البربر، فأدركهم فقاتلهم ، فقتل أبو يوسف وانهزم أصحابه[2] » واستطاعوا آخر الامر أن يدخلوا سبته ويتحصنوا بها ، وأقبل البربر يحاصرونهم ويهاجمونهم المرة بعد المرة ويحاولون الاستيلاء على هذا البلد منهم، فلم يستطيعوا ، فلما يئسوا قطعوا الزروع حول الحصن ، وأقاموا مشددين الحصار حوله حتى عَدِمَ بلج وأصحابه الأقوات وساءت حالهم كثيراً .

وزادت ثورة البربر فى إفريقية عنفا ، وقام من البربر فى كل ناحية زعيم يقود مواطنيه فى هذا الكفاح : قام أبو يوسف الهوارى يقود بربر إقليم طنجة ويقاتل بلجا ومن معه ، وتجمعت جموع عظيمة منهم فى ناحية الزاب يقودها قائدان بربريان هما عكاشة بن أيوب الفزارى الصفرى الخارجى وعبدالواحد بن يزيد الهوارى ، وأخذا يستعدان للسير نحو القيروان ، فلما أتما العدة سار عكاشة على طريق مجّانة واقترب من القيروان وعسكر عند «القَرن» ، وأما عبد الواحد فسار على طريق الجبال واقترب من القيروان وعسكر عند طُبْنه ، وكان على مقدمة جيشه أبو قرة المغيلى[3] .

---

(١) ابن عبدالحكم ، افتتاح ، ص ٢٢٥ و ISIDORI PACENCIS, *Cronicon*, cap. 68-69· الأخبار المجموعة ، ص ٣٢ — ابن القوطيه ، افتتاح ، ص ١٥ — النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣٦ — أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ، ٣١٩

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٢٢٠ — النويرى ، نهاية الأرب ، ص ٣٧ وراجع :
FOURNEL, *Les Berbères*, I.p . 299 n. 2.

وكانت هزيمة « الأشراف » قد روعت هشاما وملأت نفسه خوفا من ناحية البربر كما رأينا ، ثم وقعت هذه الهزيمة عند بقدورة فكانت ضغثاً على ابالة ، وأحس أن المسألة ليست باليسر الذى تصوره ، وأن الثورة إذا استمرت على هذا النحو فربما كانت نتيجتها خروج المغرب والأندلس جمله عن طاعة الخلافة ، فعجل بتخير نحو ثلاثين ألفا من خيرة جنده بعثها إلى حنظلة بن صفوان عامله على مصر ، وأمره بالاسراع إلى افريقية ، فوصل حنظلة القيروان بجنوده فى ربيع الأول سنة ١٢٤/٧٤١م ، وأخذ يرسم الخطة للقضاء على هذه الثورة الخطرة . وكان هشام — رغم مرضه — دائم الاتصال بحنظلة وجيشه لتوجيههم والاطمئنان على مصيرهم ، وتحدثنا المراجع أنه هو الذى رسم لحنظلة خطة العمل ، فنصحه بأن لا ينتظر حتى يجتمع الجيشان البربريان عليه ، وأن يعجل بحرب كل منهما على حدة [١] .

وقد فعل حنظلة ذلك : خرج للقاء عكاشة ومن معه عند القرن ، فالتقى بهم وانتصر عليهم انتصاراً حاسما ، وقتلهم قتلا ذريعا . ويبدو أنه خسر عدداً عظيما من جنده فى هذه الوقعة ، لأنه عاد إلى القيروان بعدها ليستعد للسير إلى جمع البربر الثانى المعسكر على مقربة من طنجة يقوده عبد الواحد بن يزيد الهوارى وأبو قرة المغيلى .

يذكر النويرى أن عبد الواحد كان فى ثلاثمائة الف [٢] ، وظاهر أن تقديره هذا مبالغ فيه ، لأنه لو كان فى هذا العدد العظيم حقاً لما استطاع حنظلة الانتصار عليه بالعدد القليل الذى كان معه ، ولكن الثابت أن حنظلة بذل أقصى جهده فى الاستعداد لهذه المعركة الخطيرة الحاسمة ، وأنه تناسى قيسيته فى هذه اللحظة الحاسمة ، وجمع العرب جميعاً ، أفارقة وغير أفارقة ، على لواء واحد للدفاع عن مصير العرب فى افريقية « فأخرج جميع ما فى الخزائن من السلاح ، ونادى فى الناس فكان يعطى لكل منهم درعا وخمسين ديناراً ، فلم يزل يفعل ذلك حتى كثر عليه الناس ، فرد العطاء إلى أربعين ثم إلى ثلاثين ،

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٧
(٢) النويرى ، نهاية الارب ، ج ١ ص ٣٧

ولم يقدّم إلا شابا قويا . فعبأ الناس طول ليلته ، والشمع حوله وبين يديه ، فعبأ فى تلك الليلة خمسة آلاف دارع وخمسة آلاف نابل ، وأصبح وقدم للقتال ، وكسرت العرب جفون سيوفها ، والتقوا ، ولزم الرجال الأرض ، وجثوا على الركب ، وكان ذلك بمكان يسمى «الأصنام» على مقربة من طبنة ، واشتد القتال وصبر العرب صبرَ الفناء[1]» . وكان عكاشة قد أسر فى القرن ، فأمر به حنظلة فقتل صبرا [2] ، وانتهت المعركة بانتصار العرب ، وقتل فيها عبد الواحد ، وانقصم ظهر الثورة وأخذت البلاد تهدأ ، وكان ذلك سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م . ومات هشام قبل أن تصله أخبار هذا النصر ، وخلفه الوليد ابن يزيد ، فأقر حنظلة على ولاية افريقية ، وساد السلام ربوعها أثناء خلافته القصيرة ، لأن حنظلة كان معتدلا فى عصبيته ، فأخذ عرب البلاد يطمئنون الى مصيرهم ، ولزم البربر السكون بعد هذه الهزائم القاسية .

ولكن الأخبار لم تلبث أن وردت بمقتل الوليد بن يزيد فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ/ أبريل ٧٤٤م ، وكان الوليد شديد العصبية للقيسيين دائم الانتصار لهم ، وكان مقتله ايذانا بانتصار أعدائهم اليمنيين وعودتهم الى السلطان . ولهذا ريع القيسيون فى افريقية عندما بلغهم النبأ ، وخافوا أن ينقلب عليهم اليمنيون والبربر الزناتيون يؤازرهم الخليفة الجديد وأنصاره . فخرج إلى الشام نفر من كبارهم وجندهم ، وبقى حنظلة فى نفر قليل من القيسية [3] .

---

(١) وبعث حنظلة أبا الخطار واليا على الأندلس . وأمره أن يبعث اليه مددا من جندها ويبدو أنه لم يوفق الى شىء ، لأن حال العرب فى الأندلس لم يكن حسنا كما سنرى . عن معركتى القرن والأصنام انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٢١ — ابن القوطية ، افتتاح ، ص ١٥ — ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ، ص ٤١ — الأخبار المجموعة ص ٣٦ — ٣٧ النويرى ، نهاية الارب ، ج ١ ص ٣٧ ؛ والنص الوارد هنا عن النويرى ؛ هذا والاصنام موضع كانت فيه آثار رومانية قديمة فى ذلك الحين ، وقد اختلف المؤرخون فى تحديد مكانه ، وأقرب آرائهم الى الصحة هو ما يذهب الى أن الاصنام تقع على ثلاثة أميال شمال القيروان على مقربة من جلولاء . راجع FOURNEL, *Berbéres*, I. p. 300 n. 4 .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٤١

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٢٣

ويبدو أن القيسيين كانوا على الحق فيما تخوفوا من انقلاب اليمنيين عليهم ، لأن رأس هؤلاء اليمنيين والعرب الأفارقة ، عبد الرحمن بن حبيب ابن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع لم يلبث أن بادر إلى العمل .

كان عبد الرحمن مع بلج بن بشر في الطائفة التي انهزمت الى سبته عقب هزيمة الأشراف ، إذ كان أبوه حبيب بن أبي عبيدة قد أمره بأن يلزم بلجا ، فلما انهزم بلج ولجأ الى سبته ، تركه عبد الرحمن ومضى إلى الأندلس ليلقى أميرها إذ ذاك عبد الملك بن قطن القهري — اليمني مثله — وجعل يثيره على بلج وأصحابه ويخوفه منهم . فلما تسامع بموت الوليد وخروج معظم القيسية إلى الشام عاد الى إفريقية معجلا ، وجمع أصحابه الأفارقة وعسكر بهم في مكان يعرف بسِبْخة سَجُوم في أوائل سنة ١٢٧هـ/٧٤٥م [١] ، وقدر أن ينتهز الفرصة ويخلص افريقية من القيسية جملة ، فكتب إلى حنظلة ومن معه يطلب اليهم ترك القيروان وإخلاء البلاد ، وأمهلهم ثلاثة أيام . وشاء حنظلة أن يقاوم ، ولكنه رأى قلة من معه ، وبلغته أنباء اضطراب الأمر على الأموية في الشرق ، فقرر ترك افريقية والعودة الى المشرق .

ويبدو أن حنظلة لم يقرر ذلك مختاراً بل مضطراً ، فقد بدا له من اختلاف عرب افريقية عليه وتواطئهم مع عبد الرحمن بن حبيب ما أخافه وزهده في المقام بهذه البلاد ، فقد حدث بعد انتصاره في موقعتي القرن والأصنام أن أمر قائده على طرابلس معاوية بن صفوان أن يخرج لحرب نفر من الصفرية من نفزاوة ، فخرج اليهم وحاربهم وانتصر عليهم ولكنه قتل في المعركة ، وأرسل بعد ذلك بقليل نفراً من وجوه العرب الى عبد الرحمن ليصالحوه وليردوه الى الطاعة ، فاستمالهم هذا بالاموال ، وانقلبوا على صاحبهم الذى أرسلهم [٢] ، وضاقت الامور بحنظلة ، واستبان أن أمر بنى أمية كله الى زوال ، وطمع فيه عبد الرحمن بن حبيب ، فجمع أصحابه ومضى بهم الى دمشق .

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ج١ ص٣٩

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٢٣

واحتل عبد الرحمن بن حبيب القيروان واستقر بها أميراً ، وصار الأمر في المغرب بعد هذا الكفاح الطويل للعرب الأفارقة بعد نزاع طويل مع البربر حيناً والعرب المشارقة القيسية حيناً آخر ، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ١٢٧ هـ / أبريل ٧٤٥ [١] .

كان انتصار عبد الرحمن بن حبيب وسيادته على افريقية ختاماً للنزاع بين القيسية واليمنية في افريقية ، لا لأن الفريقين انتهيا الى التفاهم والسلام بعد هذه المنازعات الخطرة ، بل لأن توالى الحروب مع البربر حيناً وبينهم وبين أنفسهم حيناً كان قد انتهى باضعاف العرب جميعاً في المغرب ، فلم يعد لديهم من القوة ما يمكنهم من طلب السيادة على هذه البلاد الواسعة . ثم ان زمان سيادة العنصر العربي في الدولة الاسلامية كان قد ولى بزوال الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية مكانها بعد ذلك بسنوات (١٣٢ هـ ٧٤٩ — ٧٥٠) ، فلم يعد لعرب افريقية — قيسية ويمنية — أي رجاء في أن تقف الدولة الى جانبهم وتؤيد هذا الفريق منهم أو ذاك على هذا النحو الذي جرى عليه خلفاء بني أمية . ولم يكن انتصار عبد الرحمن بن حبيب انتصارا للعنصر العربي في الواقع ، وانما كان انتصارا لهذه الطائفة الافريقية من العرب التي كانت زناتة تؤيدها وتشد أزرها ، ولهذا نستطيع القول أن انتصاره كان انتصارا لزناتة من بعض الوجوه ، ومصداق ذلك أن الأمر لم يصف لعبد الرحمن بن حبيب شهرا واحدا بعد ولايته تلك ، فقد بايع لمروان بن محمد ، فلما قتل بايع لأبي جعفر المنصور ثم اختلف معه وخلع طاعته ، واستقل بأمره ، ولم يلبث النزاع أن دب بينه وبين من كان معه من العرب ، وانتهى الأمر بقتله على يد أخيه الياس بن حبيب سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ — ٧٥٦ م ، ولم يكن الياس بأحسن حظاً من أخيه ، لأن الحرب استعرت بينه وبين ابن أخيه حبيب ، وقتل بعد ستة أشهر ، وخلفه ابن أخيه حبيب بن عبد الرحمن

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٢٠ — الاخبار المجموعة ، ص ٢٣ — ٣٥ — ابن عذارى ، البيان المغرب ج ١ ، ص ٤١ — ٤٣ — ابن الاثير ، الكامل ، ج ٥ ص ٤٣ — ابن الابار ، الحلة السيراء ، ص ٥١

الذى لم تدم ولايته أكثر من ثمانية عشر شهراً كلها حروب ومنازعات، وانتهى أمره وأمر بيت حبيب كله فى المحرم سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م. وسنحت الفرصة لورفجومة إحدى قبائل البربر الزناتيين، فدخل رجالها القيروان وسيطروا على افريقية فترة قتلوا من العرب خلالها نفراً كثيراً، ولم ينته أمرهم إلا بعد أن أرسل أبوجعفر المنصور واليه على مصر محمد بن الأشعث فى أربعين ألفاً: «ثلاثين ألفاً من أهل خراسان وعشرة آلاف من أهل الشام» كان فيهم الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمى الذى صارت اليه الأمور كلها فى المغرب فى جمادى الآخرة سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ — ٧٦٦ م بفضل من كان معه فى جيشه من الخرسانيين، وبفضل من انضم اليه من البربر [1].

بيد أننا ينبغى أن نقرر أن انتصار عبد الرحمن بن حبيب ومن آزره من العرب الأفارقة والبربر لم يكن ختاماً لثورة البربر على العرب، لأن حركات الخوارج الصفرية والأباضية استمرت بعد ذلك أشد ماتكون استعاراً وقوة.

ذلك أن الأمر لم يكد يستقر لعبد الرحمن فى القيروان حتى ظنت قبائل البربر أن أمر العرب قد ولى مع أمس الدابر جملة، وأنهم الآن فى حل من أن يستقلوا بما يسيطرون عليه من النواحى، فقام فى كل ناحية زعيم بربرى وأعلن نفسه أميراً: قام عروة بن الوليد الصدفى واستولى بجماعات من البربر على تونس، وأعلن أبو العطاف الأزدى استقلاله بطبيناس، واقتطع ثابت الصنهاجى وقومه باجة لأنفسهم وانضم اليه عبد الله بن سقرديد، وقامت جماعات من اباضية هواره يقودها عبد الجبار والحارث الهواريان واستولت على ناحية طرابلس وقتلوا عاملها بكر بن عبس القيسى [2]، وخاض عبدالرحمن بن حبيب وأخوه الياس من بعده مع هؤلاء الثائرين حروباً طويلة عنيفة استمرت سنوات، ثم وقع الخلاف بين أفراد بيت بنى حبيب أنفسهم، فتحارب بنو عبد الرحمن وبنو أخيه الياس، وتعصب لكل نفر منهم فريق من العرب الافريقين حتى

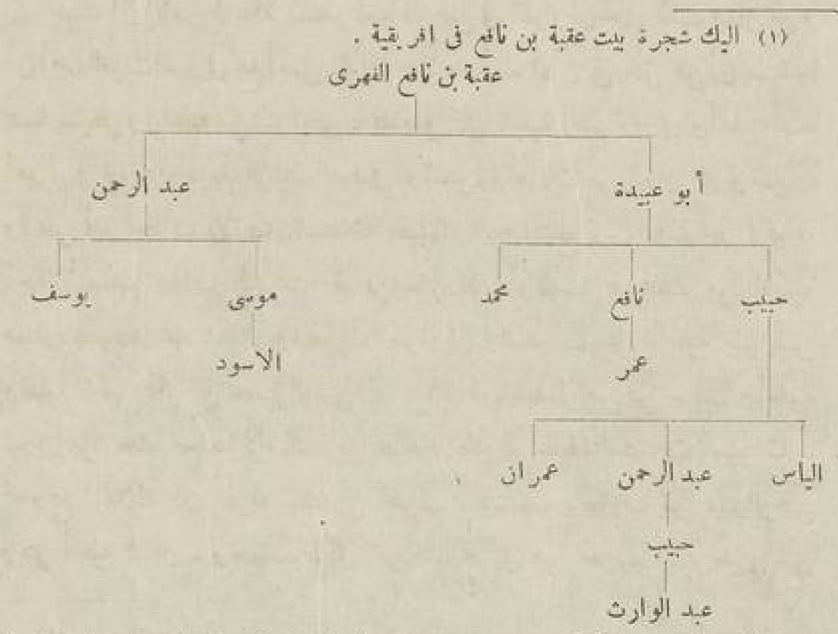
---

(١) انظر التفاصيل فى: النويرى، نهاية الارب، ج ١ ص ٤٠ — ٤٦

(١) ابن عذارى، البيان: ج ١ ص ٤٨ ومايليها — ابن خلدون، العبر، ج ١ ص ١٣٨ — النويرى، نهاية، ص ٣٨ وما يليها.

اضطربت أحوال البلاد واشتعلت ناراً من جديد ، وانتهى الأمر بأحدهم وهو عبد الوارث قائد جند الياس بالالتجاء الى ورفجومة احدى بطون نفزة والاستعانة بها على ادراك ثأر عم أبيه الياس من ابن أخيه حبيب بن عبد الرحمن ابن حبيب [1] ، فنصرته ورفجومة وشيخها عاصم ، فسار اليه حبيب ليؤدبه فانهزم انهزاماً قبيحاً واضطر الى الفرار الى قابس ، وأصبحت هذه القبيلة الزناتية سيدة اقليم أفريقية . فعجل شيخها عاصم بالمسير الى القيروان ، وخرج أبو كريب جميل بن كريب قاضيها لحبيب بن عبد الرحمن للقاء ورفجومة يقودها عاصم وأخوه مُكرّم ، فثبت لها ثباتاً كريماً بظاهر القيروان ، ثم انهزم وهلك هو ومن بقى معه ، ودخلت ورفجومة القيروان فى ذى الحجة سنة ١٣٥/٧٥٣ م ، وهكذا سقطت عاصمة المغرب الاسلامى فى يد البربر الزناتيين ، فكان هذا الحادث ايذاناً بزوال سلطان العرب عن المغرب جملة ، وبدا بوضوح أن دولة الخلافة لا بد متخلية عن هذا القطر الفسيح راضية أو كارهة فى القريب

(١) اليك شجرة بيت عقبة بن نافع فى افريقية .



انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٠٣ — ٢٠٣ ابن خلدون ، العبر ، ج ١ ص ١٠٩ وما يليها و ص ١٣٠ وما يليها ابن حذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٥٠ وما يليها ، النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ص ٤٠ — ٤٣

أو فى البعيد : فقد اشتدت الخصومة السياسية بين العرب والبربر ولم يعدهناك سبيل لاصلاح النفوس ، واختلف العرب على أنفسهم فضعف أمرهم وهانوا فى نظر رعاياهم . ولم يلعب بيت عربى فى هذا الدور من تاريخ المغرب الاسلامى دوراً يقرب من الدور الخطير الذى لعبه بيت عبدالرحمن بن حبيب ، فقد كان طموح هذا العربى الفهرى وتعصبه للعرب الافريقيين البلديين سبباً مشجعاً للخوارج على موالاة جهودهم ، ولم يكن فى نفسه بالرجل الثابت ولا القدير ، وكان فيه ميل الى الظلم ، فلم يلبث الناس أن نفروا منه ، ونهض له أخوه الياس فقتله واستبد بالامر ، فكان شراً من عبدالرحمن وأعتى ، واختلط الامر عليه ووثب به أبناء بيته ، فلم يلبث أمر بنى حبيب كلهم أن تفرق وضاع ، وضاع معه سلطان العرب السياسى على البلاد ، ولو لم يتداركها الله بعد ذلك بسنوات قلائل بمحمد بن الاشعث ثم بالاغلب بن سالم بن عقال لما عاد السلام اليها أبداً .

ثم أن دخول ورفجومة القيروان واستبدادها بشئون افريقية لم يكونا إلا مظهراً لقوة البربر الصفرية وانتشار أمرهم انتشاراً هيأ لهم السيطرة على البلاد ، وكانت سيادة هذه القبيلة شراً خالصا على افريقية وأهلها ، لأن كراهتهم للعرب بلغت مبلغا جعلهم يستبيحون كل محرم ، وكانت دعوة الصفرية قد أتتهم ولما يتمكن الاسلام من نفوسهم بعد ، فأضلتهم وأخرجتهم عن الاسلام جملة ، ومن ثم لا غرابة فى أنهم حينما دخلوا القيروان قتلوا من بها من قريش وساموهم سوء العذاب ، وربطوا دوابهم فى المسجد ١٤٠ / ٧٥٧ م — ٧٥٨ م[١] . فأثار عملهم هذا اخوانهم بربر نفوسة ، وكانوا أباضية ، فساروا يقودهم شيخهم أبو الخطاب ، فأخرجوا ورفجومة من القيروان ، وأنزلوا برجالها مذبحة مروعة وقضوا على سيطرتهم على افريقية . ومن طريف ما يلاحظ أن أبا الخطاب بدأ عمله بخلع طاعة العباسيين اعلانا منه للطابع البربرى لحركته ، ولما استقر الأمر له لم يقم نفسه أميراً على القيروان ، ولم يتخير عربياً ليقيمه فى الامارة ، وانما تخير رجلا من أصل فارسى هو عبد الرحمن

(١) النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ص ٤٤

ابن رستم ، وكان خارجيا اباضياً شديد العصبية لمبادىء الخارجية (١٤١ هـ ٧٥٨ - ٨٥٩ م) ولم يستطع محمد بن الأشعث قائد المنصور دخول القيروان وإعادة المغرب الى طاعة المشرق إلا بعد حرب عنيفة وموقعة فاصلة مع نفوسه على مقربة من تورغه إحدى قرى طرابلس جمادى الأول ١٤٤ هـ يونيو ٧٦١ م [١] ، وقد هرب على اثرها عبد الرحمن بن رستم الى أقصى المغرب الأوسط وتحصن بناحية جبل جزول عند تاهرت وكانت هناك إذ ذاك بقايا حصن رومانى فعمرها واستقر فيها يؤيده البربر الأباضية ، وأعلن نفسه اماما ، وأنشأ بذلك الدولة الرستمية ، ولم يلبث أن سيطر على المغرب الأوسط كله [٢].

وحذا حذوه بربرى خارجى آخر هو أبو قرة شيخ قبيلة بنى يفرن وكان صفريا ، فأعلن نفسه اماما فى نواحى تلمسان . وهكذا استقلت كل جماعة من البربر فى ناحية ، ولم يبق للعرب إلا سلطان ضئيل بقى لبعض المضربة فى ظواهر القيروان ، وظلّ من السيطرة بقى لجالية عربية صغيرة أخرى كانت تقيم على الطاعة فى نواحى طبنة وهدنة ، ولم يهدأ أمر البلاد إلا على يدى ابراهيم بن الأغلب الذى أقام دولته بسواعد بعض رجال العرب المشارقة تؤيدهم فرق من الجند الخرسانية وبعض القبائل الصنهاجية المنافسة للزناتية الخارجية سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠م ، وعلى يديه خرج المغرب عن طاعة الخلافة العباسية جملة .

كانت ثورات البربر على العرب إذن ختاماً لسيادة هؤلاء العرب على البلاد ، فلم يصف لهم الأمر فيها بعد ذلك إلا خلال فترات صغيرة متباعدة وفى نواحى محصورة من البلاد ، ولم تزل قبائل البربر تتداعى إلى الثورة قبيلا بعد قبيل ، ولم تزل نواحى بلادهم تخرج عن طاعة الدولة المركزية ناحية بعد ناحية ، حتى خرج البربر جميعاً وبلادهم جميعاً عن طاعة العرب والدولة الاسلامية المركزية جملة .

---

(١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٦١ — النويرى ، نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٤٤ — ٤٦

(٢) البيان المغرب ، ج ٢ ص ٦١ وما يليها — النويرى ، نهاية الارب ، ج ١ ص ٤٤ — ٤٦

وانتهزت جماعات من برابر مكناسة — إحدى بطون ضريسة — فرصة ابتعادها عن القيروان وانشغال العرب بمنازعاتهم مع البربر ومع أنفسهم ليستقلوا بناحيتهم وليقيموا لأنفسهم دولة. كانت هذه البطون من نفُوسة تسكن على منابع نهر مَلوية عند الموقع الذى ستقوم فيه بلدة سِجلماسة فيما بعد، وكانت هذه القبائل تسيطر على قريتى تازا وتسول، وكانتا إذ ذاك من منازل الرعاة، فأقبل عليها فى مراعيها رجل بربرى ممن حج الى بيت الله الحرام وأخذ أصول الدين على فقهاء المدينة، واسمه أبو القاسم سَمكو بن وَسول بن مَسلان بن أبى إزول، ويبدو أنه كان قد مال الى ناحية الخارجية، فدعا النفوسيين الى مبدئه فانضموا اليه وتعصبوا له، ولم يلبثوا أن نقضوا طاعة الخلافة فى سنة ١٤٠هـ / ٧٥٧ — ٧٥٨ م يقودهم شيخهم عيسى بن يزيد الاسود، ثم اتخذوا سجلماسة عاصمة لهم فاتسعت وتمدنت، ومات عيسى فخلفه أبنه اليسع وخلف هذا أبنه مدرار، وفى عهده قوى أمر هذه الدولة البربرية التى عرفت فى التاريخ بدولة بنى مدرار. وأنما فصلت أمر نشوء هذه الدولة لأن ذلك يلقى ضوء على التطور الباطنى الذى كان يجرى فى المغرب الاسلامى اذ ذاك، وواضح جداً أن دعاة الصفرية والخارجية هم أصحاب فضل كبير فى نشر الاسلام فى نواحى المغرب الاقصى والسوس، كما رأينا فى حالة هذا الداعية أبى القاسم سمكو، وكما سيحدث فى حركات المرابطين والموحدين فيما بعد[١].

*
* *

وقد حاول ا. ف جوتييه جغرافىُّ المغرب ومُفلسف تاريخه، أن يدرس هذه الحركات الثورية ويلتمس لها أصولها البعيدة فى تاريخ المغرب وتكوينه الجنسى، فانتهى الى آراء طيبة لابد من ايرادها فى ختام هذا البحث[٢]. يرى جوتييه أن هذه الثورات هى أخطر حادث فى تاريخ المغرب الاسلامى قبل الحركة الفاطمية. فلنعرض آراءه فى تحليل أسباب هذه الحركات لأنها تكشف

---

(١) راجع عن هذه الاحداث: ابن عذارى، البيان، ج ١ ص ٦٠ وما يليها — النويرى، نهاية الارب، ص ٤٤ وما يليها — ابن خلدون، العبر، ج ١ ص ١٣٩ وما يليها.

(٢) E. F. Gautier, *Le Passé de l'Afrique, du Nord*, pp. 260 *Sqq*

لنا فى الواقع عن خصائص هامة ينفرد بها هذا التاريخ المغربى، وتلقى على الثورات الخارجية البربرية نفسها ضوءاً كشافاً [1].

يرى جوتييه أن هذه الثورة الخارجية فى المغرب إن هى فى الواقع الا الدوناتية التى روعت أمن المغرب النصرانى من قبل. وتفصيل هذه الحركة الدوناتية فى إجمال هو أن « دونات » أسقف كازْ نوار احدى بلاد المغرب الأوسط أبى أن يعترف بصقليان (Cicilianus) بطريقاً لقرطاجنة، لأن من انتخبوه كانوا قسساً مشكوك فى صلاح عقيدتهم، فغضب عليه صقليان، وثارت بينهما الخصومة، وتعصب لكل منهما فريق، وانقسم نصارى افريقية شيعتين، شيعة صقليان، وشيعة الدوناتيين المنشقين أو الخارجين عليه.

والخارجية الاسلامية فى نظر جوتييه، ليست فى الواقع الا شيئاً شبيهاً بالخارجية الدوناتية النصرانية، فالخوارج المسلمون لا يخالفون غيرهم من المسلمين فى أمر من أمور العقيدة — كما تخالف البروتستنتية الكاثوليكية مثلا — وانما يخالفونهم فى عدم الاعتراف بخلافة معاوية، ويقولون بأحقية على وأولاده فى الخلافة، بالضبط كما كان الخلاف بين دونات وصقليان خلافاً حول شخص صقليان وحقه فى البطريقية، والحركات الدينية الخطيرة — سواء فى المغرب النصرانى أو فى المغرب الاسلامى — لم تنشأ عن آراء أو عقائد خاصة بل عن تعصب وانتصار لأشخاص، لأن أهل المغرب لا يكادون يحفلون للعقائد فى ذاتها، ومدار الأمر كله عندهم هم الأشخاص.

---

(١) لم يبحث أحد هذه الحركة بمثل ما بحثها به جوتييه من العمق والشمول، وقد انتهى من بحثه الى نظرية خاصة فسَّر على أساسها تاريخ المغرب الاسلامى كله، وقد أخذها عنه جميع مؤرخى المغرب الفرنسيين، ولهذا رأيت أن أعرض لها فى شىء من الاسهاب. واليك مراجعه التى استند اليها فى هذا البحث اتماما للفائدة وتسهيلا للمراجعة: أبو زكريا: تاريخ أبو زكريا، ترجمه وعلق عليه Emile Masqueray (الجزائر ١٨٧٨)، ص ٦٧ وما يليها من المقدمة — ابن خلدون، العبر، (ترجمة دى سلين) ج ١ ص ٢١٦ و٢١٨ — ج ٢ ص ١٢٥ وما بعدها — ابن عذارى، البيان، ج ١ ص ٥١ وما يليها — ابن الأثير: حوادث المغرب التى جمعها فانيان Fagnan وترجمها الى الفرنسية فى كتاب، Annales du Magrab et de l'Espagne، ص ٦٣

وإيمان البربر يمتاز الى ذلك بتطرف بالغ وتمسك بالظواهر يجعلهم يعلقون أمر العقيدة كلها على فرع من فروعها ، ويصرون على ذلك اصراراً لا يكاد يقبل تنازلا . وهذه كلها أمور نلاحظها فى الدوناتية كما نلمسها فى الخارجية : فقد كان الدوناتيون متعصبين لمبادئهم تعصباً أعمى لا يكاد يصدّق ، وكانوا ينتحرون جماعات فى سهولة لا يكاد يتصورها العقل ، أملا فى أن يغتنموا الشهادة ويرقوا الى السماء ، بل بلغ بهم الأمر أن كان القلق يساورهم فى بعض الأحيان حينما يعلمون أن لهم الحق فى قتل أنفسهم واغتنام الشهادة على هذا السبيل « الهين » ، فكانوا يسألون أحد المارة أن يقتلهم بيده ! وويل له إذا أبى ! فأما عند خوارج المغرب المسلمين ، فلم يصل الأمر الى حد اغتنام الشهادة بالانتحار ، بل كانوا يتهافتون على القتال فى سبيل العقيدة تهافت من لا يعنيه أمر حياته ، نجدُ هذا واضحاً عنيفاً عند غلاتهم كالصفريين ومعتدلا بعض الشيء عند معتدليهم كالأباضيين . هذا مع العلم بأن تفانى هؤلاء الأخيرين فى العقيدة كان يذهب بهم إلى حد الغاء شخص الانسان الغاء تاما أمام الخالق .

ولقد أحسن ماسكراى حينما قال إن الخارجية هى الدوناتية نُقلت من اطار مسيحى الى اطار إسلامى ، ولا يهمنا الاطار ولا الحادث الذى أثار الحركة فى المسيحية أو فى الاسلام بقدر ما تهمنا الظاهرة ومغزاها الذى يتلخص فى الحقيقة التالية : وهى أننا نجد عند نفس المغاربة أسلوباً واحداً عميقاً فى الاحساس بالله وقوته ، وأننا نجد هذا الاحساس ظاهراً فى صور مختلفة متتابعة ، فذلك غريزى عند هذا الجنس .

وهو — أى جوتييه — لا يهتم لذلك بالناحية الدينية للموضوع — فهى فى نظره حادث عارض — والمهم عنده هى الغايات والنزعات المادية التى تستتر دائما خلف ستار العقيدة ، ولقد طالما حاول الناس أن يصلوا إلى المعنى السياسى والاجتماعى للحركة الدوناتية ، وقد وفقوا ؛ وليس بالعسير كذلك الوصول إلى النزعات السياسية والاجتماعية التى أدت إلى الثورة الخارجية .

ثم يقول إن ابن خلدون نفسه قد كشف عن هذه النزعات ببعد نظره وزكانته ، وذلك حيث قال : إن الخارجية انتشرت على عجل فى البلاد

وأصبحت سلاحا فى يد أهل الفتنة يحاربون به الدولة ، وهو يقصد بالدولة هنا دولة الخلفاء التى يمثلها العمال ، فهؤلاء الخارجيون كانوا يلتمسون الأنصار بين الطبقات الدنيا من البربر .

ولم تكن الدوناتية فى الواقع إلا حركة بربرية سياسية اجتماعية أساسها ديموقراطي ، إذ كانت فى الواقع ثورة شعبية قام بها فقراء الناس المستضعفون . وطبيعى أن الشعب الذى قام بحركة الخارجية لم يكن هو نفسه الشعب الذى قام بالدوناتية ، فقد تغيرت الأحوال بتغير الأزمنة ، وإنما كان عماد الحركتين هؤلاء الناس الذين كان تصوفهم صورة نظرية لحرمانهم من الخيرات الدنيوية ، وكان هذا التصوف يخفى خلفه — بطبيعة الحال — انفجاراً هائلا لمطامع لم تسعفها الظروف بالتحقق .

وكانت الخارجية كذلك ثورة من البربر أهل البلاد على السادة الأجانب ممثلين هذه المرة فى صورة الخلفاء المشارقة .

ثم يمضى جوتييه يحلل عناصر الحركة الخارجية ، لأنه لا يريد أن يكتفى بتسميتهم بربراً وكفى ، بل يريد أن يعرف أى فرق من البربر نهض بعبء الحركة ، ويقرر بوضوح أن الذين قاموا بالحركة كانوا فى الغالب بربراً زناتيين ، فقد انفجرت الثورة أول الامر فى طنجة خلف ظهور الجيوش الاسلامية الغازية فى اسبانيا ، ثم لم يلبث لهبها أن وصل إلى القيروان ، وقد وقعت موقعة الأشراف على مجرى « شلف » ، ووقعت المعركة الثانية التى هلك فيها كلثوم بن عياض على نهر « سبو » ، ووقعت الثالثة التى انتصف فيها العرب لأنفسهم عند القرن على مقربة من القيروان سنة ٧٤٢ ، وأما الرابعة فقد كانت الى الشرق مما يلى ذلك ، وفيها استولى الخارجيون على طرابلس ، ثم نشهد بعد ذلك رد فعل عربى عنيف يقوم به عبد الرحمن بن حبيب . أى ان الحوادث البارزة فى الحركة كلها دارت حول طرابلس وتونس وتلمسان (بين سنتى ٧٤٣ — ٧٥٢) وفيما بين سنتى ٧٥٧ — ٧٥٨ ينتقل مركز الحركة الى القيروان ، فيستولى عليها برابر ورفجومة الخارجيون ويعيثون فيها فساداً ، ثم يطردهم عنها برابر آخرون ، ويستولون عليها . ثم ينهض العرب لحرب الخارجيين من جديد

يقودهم محمد بن الأشعث ويحرز النصر فى صُرت من نواحى طرابلس ، ثم يسير الى القيروان فيحتلها ، ولكنه لا يوفق الى النصر عند تلمسان التى ينتقل اليها مركز الحركة بفضل أبى قرة اليفرنى (سنة ٧٦٥) ، ثم يعود الخارجيون فيستولون على طرابلس ، ويحاصرون القيروان ، ويطيل المؤرخون الحديث عن حصار الخارجيين لطبنة فى اقليم هُدنة ، ويذكرون أن عاملها عمر بن حفص ظل زمناً طويلا محاصراً (سنة ٧٧٠) حتى لقى حتفه على أسوار القيروان (سنة ٧٧١) ، ثم يستمر الأمر بين أخذ ورد بين العرب والخارجيين حتى ينتهى الأمر الى يد بنى الأغلب فى سنة ٨٠١ ، فتهدأ أحوال البلد ويسودها السلام قدراً من الزمان . فمراكز الثورة هى طنجة ووادى سبو واقليم تلمسان ووادى شلف وهُدنة وجنوبى تونس وطرابلس ، أى انها تقع جميعاً فى نطاق السهول والهضاب العالية ، أى فى مواطن زناته ، لقد وقعت الثورة كلها فى أوطان زناته على وجه التقريب .

ثم يمضى جوتييه مؤيداً رأيه ، فيذكر أن ابن خلدون وابن عذارى يؤكدان أن عبء الحركة الأولى حملته برغواطة (ويشير الى أن برغواطة هذه قد كفرت بالقرآن فيما بعد ، وأقام رجالها فى إقليم الشاوية ديناً جديداً يخالف الاسلام) ، ومغيلة وهوارة وبنى يفرن ، ويناقش النصوص مناقشة يخرج منها بأن قليلا جداً من صنهاجة قد شاركوا هذه الحركة ، وأنها لهذا ينبغى أن تعتبر حركة زناتية صرفة .

ثم يستطرد جوتييه استطراداً بعيداً يحلل فيه الحركة من الناحية الاجتماعية ، ولكننا نكتفى بهذا القدر الذى أوردناه لأنه يلقى ضوءاً كاشفاً على بعض العناصر النفسية فى هذه الحركة البربرية الخطيرة ، ويهمنا من كلامه قوله انها كانت حركة زناتية ، وهذا معقول وطبيعى ، فقد كانت زناته قد أعانت المسلمين وانضمت اليهم من أول الأمر أملا فى أن تنتصف بهم على الروم والنصارى والأفارقة وصنهاجة ، وأن تستعيد فى ظلالهم بعض ما فاتها فى عهود هؤلاء ، ففاجأ العرب رجالها بهذا العسف الذى رأيناه، فجنحت نفوسهم الى الثورة . ويهمنا كذلك قوله أن هذه الحركة طبيعة مركبة فى النفس البربرية :

فهى طبيعة تفان وتصوف واستخفاف بالحياة . ويهمنا كذلك إشارته الى ناحيتها القومية ، فالواقع أن الذين قاموا بها كانوا ينكرون على العرب هذا التصرف المطلق في شئون البلد . ويهمنا أخيرا ربطة هذه الحركة بأمثالها فى عهود الروم وسيره بالحركة الى مطالع العهد الأغلبى .

*
* *

الأندلس

ولم تكن الأحوال فى الأندلس إذ ذاك بأحسن مما كانت عليه فى المغرب . كانت هزيمة المسلمين فى بلاط الشهداء ومقتل عبد الرحمن الغافقى وخيرة رجاله فى رمضان سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م قد أوقعت البلد فى أزمة كبرى : ذلك أن اليمنيين وأحلافهم من المدنيين انتهزوا فرصة موت الغافقى واشتغال عامل افريقية عنهم فأقاموا كبيرهم عبد الملك بن قطن بن نُفيلة بن عبد الله الفهرى فى أول شوال سنة ١١٤هـ ، ويبدو أن عبيدة بن عبد الرحمن عامل افريقية أقر عبد الملك فى ولايته لأن العلائق لم تكن طيبة بينه وبين أنصار عبد الرحمن الغافقى [١] .

عبد الملك بن قطن الفهرى

لا تمدنا المراجع العربية بمعلومات وافية عن أعمال عبد الملك فى ولايته الأولى ، ولكن ايزدور الباجى يذكر أنه أساء السيرة وآذى المسلمين والنصارى معاً ، وأن من معه من اليمنية عاثوا فى البلاد فساداً وأكثروا من الشغب والثورة عليه ، وأنهم شرهوا الى الأموال شرهاً اضطر معه عبد الملك الي عسف الناس عسفاً أثار النفوس وأسخطها [٢] . فلما تولى عبيد الله بن الحبحاب أمر افريقية بعث على الاندلس مولاه عقبة بن الحجاج السلولى ، وكان رجلا قيسياً صالحاً محباً للجهاد ، فوصلها وبدأ ولايته عليها فى شوال سنة ١١٦ هـ / ٧٣٤ م [٣] .

ويذكر ايزدور الباجى أن عبد الملك بن قطن الفهرى ومن معه من المدنيين حاولوا أن يعارضوا عقبة ويحدثوا عليه الشغب ، فاضطر الى القبض على عبد الملك

---

(١) انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح ، آخر ص ٢١٦ وأول ٢١٧

(٢) ايزودور ، فقرة ٦٠

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٢٧ — ٢٨

والقائمة فى السجن ، ثم نقل عددا عظيما من المدنيين الى افريقية لكى تهدأ البلد وتستريح من نزوعهم الدائم الى السلطان والفوضى [1] .

ويبدو أن الأحوال استقرت لعقبة فى الأندلس بعد ذلك فاستطاع أن يقوم بأمر البلاد « بأحسن سيرة وأجملها وأعظم طريقة وأعدلها [2] » ، واستطاع كذلك أن ينصرف الى الفتوح فى صقلية وفيما وراء البرانس بقية أيام حكمه الذى طال سبع سنين [3] .

فى ذلك الحين كانت ثورة البربر فى إفريقية على أشدها ، وكان عبيد الله ابن الحبحاب قد انصرف عنها وتولاها كلثوم بن عياض ، وشغل القيسية فى إفريقية عن أبناء عمومتهم فى الأندلس ، فضعف أمر عقبة ومن معه ، وبدأ اليمنيون ومن معهم من المدنيين يتطلعون إلى السلطان من جديد ، وقد أمكنتهم الفرصة فى أوائل سنة ١٢٣ هـ إذ مرض عقبة وطال مرضه حتى أشفى على الموت ، والغالب أن اليمنيين ضغطوا عليه وأرغموه على إقامة عبد الملك بن قطن خليفة له إذا توفاه الله ، وقد كان ، وعاد السلطان الى ابن قطن ومن معه من اليمنيين والمدنيين [4] .

والظاهر أن نفرا من دعاة الثورة البربرية الافريقية خف إلى الأندلس ليثير بربرها على عربها ، ولم يكن البربر فى الجزيرة الأندلسية مطمئنين إلى العرب ، لأن هؤلاء الأخيرين استبدوا دونهم بالأمر كله ، مع أن معظم فضل الفتح يعود الى البربر وحدهم . ويذهب نفر من المؤرخين كذلك الى

---

(١) ايزودور فقرة ٦١ ، ويراد بالمدنيين هنا جماعات من أهل المدينة المنورة من الأنصار هاجروا الى الاندلس واستقروا فيها ، وأنشأوا لانفسهم شيعة سياسية قوية ، وكانوا يؤازرون اليمنيين ويحتمون فيهم .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ص ٢٩

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٢٨

(٤) ايزودور الباجى ، فقرات ٦١ — ٦٣ يذكر ابن عذارى أن عقبة استخلفه (البيان ج ٢ ص ٢٩) ويذهب ابن عبد الحكم الى أن عبيدة بن عبد الرحمن هو الذى رد عبد الملك الى ولاية الأندلس (فتوح ، ص ٢١٧) ، أما ابن القوطية فيؤكد أن عبد الملك ومن معه من الجنية اجتمعوا على عقبة وخلعوه ، فهو يتفق مع ايزودور فى ذلك ، وقد أخذنا بروايتهما .

أن العرب اختصوا أنفسهم بخير بقاع الأندلس ، ولم يتركوا للبربر غير الفيافى والجبال القاحلة فى الشمال والشمال الغربى[1] . وليس ذلك صحيحا على اطلاقه ، لأن جماعات بربرية كثيرة كانت مستقرة فى أخصب نواحى الاندلس فى الجنوب والشرق والغرب ، بل كادت ناحية الجزيرة الخضراء أن تكون قصراً عليهم لكثرة من نزلها من بطونهم وعشائرهم ، ثم ان العرب لم يكونوا من الكثرة بحيث يستطيعون الانفراد بكل سهول بلد عظيم واسع كالأندلس ، ثم ان الكثيرين منهم (أى من العرب) كانوا أهل جهاد مقيمين دواما فى منطقة البرانس وماوراءها عند أربونة ، فلم تكن بقية العرب لذلك من الكثرة بحيث تستطيع احتلال سهول الأندلس الواسعة فى الشرق والجنوب والوسط والغرب. ثم ان المراجع تتحدث كذلك أن جماعات كبيرة منهم كانت قد استقرت فى أقصى الشمال عند لاردة واسترقة و« المداين التى خلف الدروب » كما يقول صاحب الأخبار المجموعة[2] أى فى نواحى الهضاب الشمالية المجاورة لمواطن الأسبان النصارى فى الشمال ، فتعليل ثورة البربر على العرب فى الاندلس بأن هؤلاء استبدوا دونهم بخيرات البلد وحرموهم منها جميعا مبالغة لا تؤيدها المراجع ، فأما غضب البربر فسببه استبداد العرب بأمر الحكم واعتبارهم البربر شعبا محكوما لا ينبغى أن يترك له أى نصيب فى الحكم أو فى ادارة الأمور ، ولم يكن البربر ليعتبرون أنفسهم بأقل من العرب دينا ولا كفاءة ولا فضلا ، فقد كانوا هم الذين حملوا معظم عبء الفتح ، وكان منهم طريف وطارق وهما صاحبا الفضل الأول فيما أصاب الاسلام فى الاندلس من نصر ، ولم يقف الأمر عند مجرد الاستبداد بالأمر بل تعداه الى سوء المعاملة والاهانة ، فكان العرب يوقعون بهم أقسى العقوبات لأتفه الأسباب ، فاذا جرأوا على الشكوى كان عقابهم أشد وأقسى[3] .

---

(1) Dozy, *Hist. des Musulmans d'Espagne* I, p. 161
„ , *Recherches* I, pp 118-119.

(2) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ وراجع ذلك المقال القيم الذى كتبه سيزار دوبلر عن منازل البربر فى الجزيرة الأندلسية .

Cesar Dubler, *Über Berbersiedlungen auf der iberischen Halbinsel*, in *Festschrift J. Jud*, Zürich 1943.

(3) ايزودور ، فقرة ٤٤ Dozy, *Recherches*, I. p. 119.

ثم ان استبداد القيسية بالأمر كان حريا أن ينفر البربر ، إذ كان القيسيون قوما ذوى عصبية شديدة ، لايكادون ينظرون لغيرهم نظرتهم الى ناس مثلهم ، وقد رأينا موقفهم من اليمنية ومن البربر فى افريقية ، وليس لدينا وثائق تدلنا على معاملتهم للبربر فى الأندلس ، ولكن الأدلة كلها تدل على أنهم أساءوا معاملتهم ونفروا نفوسهم ، وكان اليمنيون أقرب الى نفوس البربر منهم ، لأنهم كانوا معظم الوقت مضطهدين مثلهم[1] . وهذا لايمنعنا من أن نقرر أن هؤلاء اليمنيين كانوا اذا وصلوا الى السلطان أفسدوا من أمره أشد مما كان القيسيون يفعلون ، لأن عيب القيسيين كان كبرياء وصلفا ، فى حين كانت عيوب الكلبية اليمنية الظاهرة جشعاً الى المال وميلا الى الفوضى وعجزاً عن التنظيم وحسن الادارة .

طبيعى اذن أن يبادر بربر الأندلس الى الثورة حينما تبلغهم أنباء ثورة أبناء عمومتهم واشتباكهم مع العرب فى الحرب فى افريقية . فيقول صاحب الأخبار المجموعة — وروايته على قصرها أكثر ما بين أيدينا تفصيلا — : « فقضى أن بربر الأندلس لما بلغهم ظهور بربر العدوة على عربها وأهل الطاعة ، وثبوا فى أقطار الأندلس ، فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم ، وأخرجوا عرب أسترقة والمداين التى خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن الا فلهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف الى وسط الأندلس ، الا ماكان من عرب سرقسطة وثغرهم ، فانهم كانوا أكثر من البربر ، فلم يهج عليهم البربر[2] . . » ويزيدنا صاحب فتح الأندلس وضوحا فيقول : « وتطاولت البربر أيضاً بالأندلس على العرب الساكنين بجليقية وأسترقه والمداين التى خلف الدروب ، وقاتلوهم وطردوهم لكثرتهم هنالك وقلة العرب[3] » ولايزيدنا ابزودور وضوحا كثيراً ، وان كان

---

(١) يفهم هذا من قول ابن القوطية مثلا : « وبقى عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين الشاميين ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهرى ، ويقولون لأهل الشام : « بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا ! » ابن القوطية ، افتتاح ، ص ١٧

(٢) الأخبار المجموعة ص ، ٣٨

(٣) فتح الأندلس ص ٣١

يشير الى أن العرب استبدوا بالبربر وآذوهم وعاملوهم معاملة قاسية ، فأسخطهم ذلك ودفع بهم الى الثورة [1] .

ولكن دوزى يضيف من عنده كثيراً ، فيزعم أن العرب اختصوا أنفسهم بأحسن الأرض ، ولم يتركوا للبربر غير النواحى القاحلة فى الشمال ، ويمضى فى المبالغة — على عهده — فيذكر أن بربر الأندلس تلقوا أخبار ثورة أبناء عمومتهم فى العدوة الافريقية بقبول عظيم ، وأن دعاة خارجيين ذهبوا الى الأندلس ليحضوا البربر على القيام على العرب واستئصالهم جملة ، فلم تلبث أن انفجرت ثورة دينية سياسية فى اقليم جليقية امتدت الى شمال الأندلس جميعه عدا اقليم سرقسطة ، ولسنا نعلم من أين استقى هذا كله ، وليس بين أيدينا الا ما أوردناه من النصوص [2] .

ومهما يكن من الأمر فقد ثار بربر شمال الأندلس على عربها المقيمين فى نواحى جليقية واسترقه والنواحى القاصية من أشتريس وبعض مناطق الغرب مثل ماردة وقورية وطلبيره ، فأما اقليم سرقسطه فلم يجرؤ البربر فيه على الوثوب بالعرب ، لأن العرب هناك كانوا أكثر عدداً منهم . وأسرع من بقى من العرب فى هذه النواحى بالهروب إلى وسط الأندلس [3] ، فاذا انتصر البربر هذا النصر الأول فقد انتظمت قواهم فى ثلاثة جيوش كبيرة : وجهة الأول طليطله والثانى قرطبة والثالث الجزيرة الخضراء ليتصل بالبربر عبر المجاز . ومثل هذا الترتيب لا يمكن أن يصدر إلا عن قيادة واحدة نظمت صفوف الثائرين ورسمت لهم وجهة واضحة معينة ، لأن الاتجاه إلى الجزيرة الخضراء معناه محاولة قطع مواصلات العرب مع المشرق لحصرهم حصراً لا مخلص لهم منه ، وهذا أمر لا يصدر إلا عن رأس مفكر مدبر ، ويذهب دوزى إلى أن الثائرين اجتمعوا وانتخبوا من بينهم إماماً دون أن يذكر مرجعه فى هذا

---

(١) ابزودور ، فقرة ٧٦

(٢) DOZY, *Mus. d'Esp.* I. p. 161.

(٣) الاخبار المجموعة ، ص ٣٩

القول[1]. ولكننا وجدنا فى « فتح الأندلس » إشارة موجزة إلى وجود زعيم بربرى يسميه « زقطرتق » كان يرأس جماعة البربر التى كانت متوجهة إلى الجزيرة الخضراء والتى تجمعت فى شذونه ، فلا يستبعد أن يكون هذا فى الواقع رسماً محرفاً لاسم هذا البربرى الذى قاد بربر الأندلس فى الثورة كما قاد ميسرة بربر افريقية[2] .

تحرج مركز عرب الأندلس اذن ، ووجد عبد الملك بن قطن ومن معه من الكلبية اليمنية أنهم لن يستطيعوا الثبات للبربر الا اذا وصلتهم من المشرق امدادات . ولم يكن ذلك ميسوراً لأن ثورة البربر فى افريقية كانت على أشدها ، ثم انهم كلبيون يمنيون وكان اليوم يوم القيسية المضرية .

عبور بلج بن بشر ومن معه من القيسية الى الأندلس

وكان بلج ومن معه من الشامية القيسية محصورين فى سبتة منذ عام ، وقد أجهدهم الحصار حتى أكلوا الدواب والجلود وأشرفوا على الهلاك[3] وكانوا لا يكفون عن الكتابة الى عبد الملك يستصرخونه ويستغيثون به ، فلم يسمع الى استغاثتهم ، لأنه كان يخشاهم على نفسه ، فهم قيسية شآمية متعصبون وهو ومن معه كلبيون يمنيون ، فتركهم لكى يهلكوا حيث هم[4] ، وكان عبد الرحمن ابن حبيب ، قد نجا من معركة الأشراف — كبير عرب افريقية الذى تحدثنا عنه — وانهزم مع بلج وأصحابه الى سبتة ، ومن هناك عبر الى عبد الملك بن قطن الفهرى مثله ، وجعل يحرضه على بلج وأصحابه ويخوفه منهم ، فزاده ذلك اصراراً على تركهم لمصيرهم[5] . وبلغ من اسرافه فى ذلك أن عربياً أندلسياً من لخم يقال له

(١) يقول صاحب الاخبار المجموعة فى ص ٣٩ : « وكانت قد رأست البربر بالاندلس على أنفسهم ابن هدين » ؛ ولم نستطع قراءة هذا الاسم ، وظاهر أن المؤلف يريد أن يقول ان البربر اختارته رئيسا فقط لا اماما ، والفرق بين الامرين ظاهر ، اذ أن نص ابن القوطية يفهم منه أن الحركة سياسية ، أما كلام دوزى فيفهم منه أن الثورة كانت دينية أيضاً ، وانظر أيضاً : ابن حيان ، عند المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ١١

(٢) فتح الاندلس ، ص ٣١ ، وهذه هى قراءة ناشر الكتاب ، ولم استطع تحقيقها .

(٣) الاخبار المجموعة ، ص ٣٧

(٤) نفس المصدر والصفحة ، وفتح الاندلس ، ص ٣١

(٥) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٢٠

عبد الرحمن بن زياد الأحرم أشفق عليهم من التلف ، فبعث اليهم مركبين وشحنهما بالشعير والأدام ، فبلغ ذلك عبدالملك فغضب عليه وعاقبه أشد عقاب[1] وساءت حال بلج وأصحابه . ولو لم يكن الربيع قد أقبل وأنبتت الأرض بعض الخضرة والبقل لهلكوا[2] ، ولكنهم اقتاتوا بذلك واستعانوا به على البقاء حتى واتتهم الظروف بالفرج من حيث لم يحتسبوا .

وزاد مركز عبد الملك وعرب الأندلس حرجاً مع الأيام ، ولم يجد عبدالملك لنفسه مخرجاً الا أن يأذن لهؤلاء القيسيين المحصورين فى سبتة فى العبور الى الأندلس ، فأجابهم الى طلبهم بعد طول عناد ، واشترط عليهم أن يبارحوا الأندلس بعد القضاء على ثورة البربر مباشرة ، واشترطوا عليه بدورهم أن لا يفرقهم وأن يعيدهم الى أفريقية جماعة واحدة ، وينزلهم فى مكان يستطيعون منه العودة الى المشرق . وتم الاتفاق على ذلك . وأرسل اليهم عبدالملك سفناً عبروا بها الى الأندلس سنة ١٢٣هـ / ٧٤١ بعد أن أعطت كل فرقة منهم عشرة من رجالها رهائن احتفظ بهم عبدالملك فى جزيرة أم حكيم فى مدخل الوادى الكبير[3] .

طالعة بلج

هكذا عبر بلج بن بشر القيسى ومن معه من القيسية الشامية الى الأندلس ، ولم يكن عددهم ليزيد على عشرة آلاف ، ولكنهم كانوا من غير شك نخبة من خيرة فرسان الشامية القيسية . لقد أساء رئيساهم كلثوم وبلج استعمالهم حتى هذه اللحظة وسيرتكبون من الأخطاء فيما بعد شيئاً جسيماً ، ولكنهم امتازوا بشجاعة عظيمة وذكاء بعيد ، وسينتهى بهم الأمر بالاستقرار فى البلاد ، وسيكون لهم فى تطور الأندلس الاسلامى أحسن الأثر حينما تستقر الأمور وتقوم الدولة الأموية .

ترك بلج وأصحابه الأندلس فى حال من الجوع لا مزيد عليها ، وكانت ملابسهم قد بليت حتى كانوا يستترون بالدروع ، ونزلوا الجزيرة الخضراء ، « فوجدوا بها جلوداً مدبوغة كثيرة ، فقطعوا منها المدارع ، ثم أقبلوا الى قرطبة ،

---

(١) الاخبار المجموعة ص٣٨ — ابن خلدون ، عندالمقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١١

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٨ — ٣٩ — فتح الاندلس ، ص ٣١

فكسا ابن قطن خيارهم وأعطاهم كلهم عطاء . فلم يكن فيه ما يغنيهم ، واستقبلهم عرب بلد الأندلس وهم ملوك ، فكسا كل رجل منهم من خيارهم خيار عشيرته ، وأفضل عليهم الناس حتى لبسوا وشبعوا[1] » . وهكذا آوى عرب الأندلس رجال هذه الطائفة القليلة من القيسية بعد أن تقاذفتهم البلاد والنُّوَب منذ مبارحتهم مواطنهم الأولى فى الشام منذ قرابة العامين . ولا نزاع فى أن القيسية الأندلسية قد أحسنت استقبالهم واكرامهم على النحو الذى يصفه صاحب الأخبار المجموعة طمعاً فى أن تقوى بهم قلوبها . ومن ثم ليس بغريب أن نرى قيسية الأندلس تنهض لمنازلة الكلبية اليمنية من جديد .

طائفة بلج تقضى على ثورة البربر فى الأندلس

ولم يكد بلج وأصحابه يريحون بقرطبة حتى نهضوا للعمل الذى أتوا من أجله وهو لقاء البربر والقضاء على ثورتهم . كان أول ما ينبغى عمله هو القضاء على الجيش البربرى الذى كان متجهاً نحو الجزيرة الخضراء ليتصل بالبربر الثائرين فى ناحية طنجه وسبته ويقطع كل أمل لعرب الأندلس فى أى عون يأتيهم من المشرق ، ويبدو أن هذا الجيش البربرى كان أقوى جيوشهم الثلاثة وأكثرها نظاما ، وكان قد وصل كما رأينا إذ ذاك الى شذونة وعسكر عندها .

نهض بلج وأصحابه للقاء هؤلاء ، وانضم اليه نفر من عرب الأندلس البلديين ما بين قيسية ويمنية ، والتقى الجمعان على مقربة من شذونه « فلم يكن للعرب فيهم إلا نهضة حتى أبادوهم وأصابوا أمتعتهم ودوابهم ، فاكتسى أصحاب بلج وانتعشوا وأصابوا المغانم[2] » ولا نزاع فى أن العرب كانوا مدفوعين فى هذه المعركة بالرغبة فى طلب الثأر من هؤلاء البربر الذين أذاقوهم الويل فى افريقية والأندلس طوال الحقبة الماضية . ثم نهض بلج وعبد الملك ابن قطن ومن معهما للقاء الجيش البربرى الذى كان متجها نحو قرطبة ، ولم يجدوا عناء كبيراً فى هزيمته والقضاء عليه .

---

(1) الأخبار المجموعة ، ص ٣٩

(2) ابن عذارى ، البيان ، ج ٢ ص ٣١

فأما الكتلة البربرية الثالثة التى كانت تحاصر طليطلة فيبدو أن أمرها كان أخطر من الكتلتين الأخريين بسبب الأعداد العظيمة التى تجمعت فيها . كانت جماعات بربرية غفيرة من بربر جليقية وأسترقه وماردة وقوريه وطلبيره قد انجفلت من بلادها وانضمت اليها ، وأقبلت لحاصرت طليطلة ، وأقامت على الحصار أشهراً حتى اشتد الأمر بطليطلة وأهلها ، وكان بعض هذه الجماعات البربرية قد عبر التاجه وانحدر نحو الجنوب ، وحاول عبد الملك بن قطن أن يناجزها الحرب فلم يفلح ، فلما تم له القضاء على الجيشين البربريين الآخرين على يد الشآمية جمع رجاله وسار مع الشآميين للقاء البربر على مقربة من طليطلة ، فلما تسامع هؤلاء بمسيره اليهم حلقوا رؤوسهم اقتداء بميسرة ، « ولكى لا يخفى أمرهم وليضربوا ولا يختلطوا[1] » مما يدل على شدة حماسهم ورغبتهم فى النصر .

معركة وادى سليط

دارت المعركة الحاسمة بين الجانبين عند وادى سليط (Guazalete) وحمى أوارها ، لأن قلوب الجانبين كانت تفيض سخطا ، وأظهر الشآميون من الشجاعة والقدرة ما استطاعوا به القضاء على هذه الجموع البربرية والانتصار عليها ، « فلم ينج منهم إلا الشريد ، فركب أهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرقوا الجيش فى الاندلس فقتلوا البربر حتى أطفأوا جمرتهم[2] » (منتصف ٧٤١ م أوائل ١٢٤ هـ) .

ويفهم من هذه العبارة الأخيرة أن العرب بعد أن انتصروا على البربر هذا الانتصار الحاسم عند وادى سليط تعقبوهم فى نواحى الجزيرة واشتدوا فى ذلك شدة بالغة حتى ساء حالهم كثيراً .

***

(١) الاخبار المجموعة ، ص ٤٠

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ ووادى سليط نهير يصب فى التاجه من اليسار جنوبى طليطلة بقليل . وقد أشار الرازى فى قطعة باقية من الترجمة الاسبانية لتاريخه الى هذه الموقعة بقوله :
"et esta botalla fué en el termino de Toledo sobre el rio Calican .
انظر الفقرة ٢٤ ص ٨٨ فى نهاية عمود ٢ من طبعة جايانجوس . ولم يستطع الناشر تحقيق نهر كاليكان هذا .

الجاعة وهجرة البربر الى أفريقية

شغل العرب والبربر بهذه الحروب عن عمارة الأندلس، وكانت جموع كثيرة من هؤلاء البربر وأعداد قليلة من العرب قد اشتغلت بفلاحة الأرض واستقرت فيها منذ سنوات الفتح الأولى، وكان نفر آخر من العرب قد استقروا في عواصم الأرياف والقرى التي غنموها واشتغلوا بالاشراف على المزارعين من أهل البلاد، فكان اشرافهم هذا من العوامل التى أسرعت بعمار الأرض بعد انتهاء فترة الفتح وما دار خلالها من حروب. فلما اشتغل العرب بالحروب فيما بينهم، وغادر العرب مواقعهم، واشتبكت الحرب العنيفة بينهم وبين البربر وانتصروا عليهم واشتدوا فى الانتقام منهم، خاف من بقى من البربر واضطرب فى مساكنه، وبدأت الرغبة تساورهم فى ترك هذه البلاد – التى كانوا يقيمون فيها على الخطر – الى بلادهم الأولى حيث يكونون أكثر اطمئنانا. فانصرف معظم هؤلاء البربر عن الزراعة وأخذوا يهجرون الأرض، وكان العرب قد فعلوا ذلك قبلهم، وهكذا أخذت المزارع والقرى تخلو من سكانها من العرب والبربر، وأخذ الخير يقل فى البلاد، وتوالى ذلك سنوات فازدادت الحال سوءاً. ولم ينتبه العرب إلى ذلك لاشتغالهم بحروبهم مع البربر ومنازعاتهم بين أنفسهم، فانتهى الأمر بعد سنوات قلائل إلى مجاعة كبيرة لقلة المحاصيل، وانضاف شر هذا البلاء الجديد إلى شر الحرب القائمة والفوضى السائدة وقلة الأمان، فانعدمت الزروع وندرت المحاصيل ولاح شبح مجاعة خطرة ظهرت بشكل حاد بعد أن انهزم البربر هزيمتهم النهائية عند وادى سليط. فلم تكد عشرة أعوام تنقضى على ذلك حتى قحطت البلاد وانتابتها مجاعة عامة شديدة يتحدث عنها صاحب الأخبار المجموعة بقوله: «حتى كانت فتنة أبى الخطار وثواه، فلما كانت سنة ثلاث وثلاثين (٧٤٨م) هزمهم (أى بلاى زعيم الأسبان) وأخرج (يريد أخرجهم أى العرب) عن جليقية كلها، وتنصر كل مذبذب فى دينه وضعف عن الخراج، وقتل من قتل، وصار فلهم الى خلف الجبل إلى أستورقه، حتى استحكم الجوع فأخرجوا أيضاً المسلمين عن استورقة وغيرها، وانضم الناس الى ما وراء الدرب الآخر والى قورية وماردة فى سنة ست وثلاثين، واشتد الجوع،

فخرج أهل الأندلس الى طنجة وأصيلا وريف البربر ممتارين ومرتحلين ، وكانت إجازتهم من وادى بكورة شذونة يقال له وادى برباط ، فتلك السنون تسمى « سنى برباط » ، فخف سكان الأندلس ، وكاد أن يغلب عليهم العدو ، إلا أن الجوع شملهم [1] » .

واشتدت المحنة وأصابت نواحى الأندلس كلها عدا اقليم سرقسطة الذى نجا منها بفضل مياهه وأنهاره وبفضل الجماعة العربية الكبيرة التى استقرت فيه . ويبدو أن المحنة كانت شديدة جداً ، لأن الكثيرين من العرب انجفلوا — كما رأينا — الى النواحى التى توقعوا أن يجدوا فيها خيراً ، وكان البربر أسوأ حالا ، لأن الهزائم فلت غربهم ، ولأن العرب تتبعوهم بالأذى فى كل ناحية حتى ضاقت البلاد بهم ، وأحسوا العداوة والشر فى الأندلس فأخذت جموع منهم تعود إلى إفريقية ليطمئنوا بين أهليهم وعشائرهم ، فهاجروا إلى إفريقية أرســالا كثيرة .

زحف نصارى الأسبان نحو الجنوب

لا نزاع فى أن عدد من هجر من البربر كان عظيما جدا ، لأن المؤرخين يحدثوننا أن نواحى شمال الأندلس وغربه كادت تخلو من أهلها المسلمين ، فاذا أضفنا إلى ذلك أعداد من هلك من السكان — عربا وبربرا — بسبب المجاعة ، ومن انجفل منهم الى الجنوب وإلى الغرب وإلى اقليم سرقسطة ، استطعنا أن نعرف السبب فيما حدث من اتساع دولة النصارى الأسبان فى جليقية وأشتريس اتساعا مفاجئاً بلغت به ضعف حجمها الأول بين سنتى ٧٥١ و ٧٥٣ (١٣٤ — ١٣٦ ﻫ) : ذلك أن الاقليم الواسع الواقع بين نهرى المنهو والتاجه خلا من سكانه المسلمين فى ذلك الحين، فاستطاع النصارى أن يتقدموا ويحتلوا ما استطاعوا من هذه المساحة من غير جهد ، وكان يقودهم ملكهم ألفونسو الأول ، فاسترجع النصارى إفراغه وأبورتو وفزيو [2] ، وبذلك سيطروا

---

(١) الأخبار المجموعة ص ٦٢

(٢) ظن بعض المؤرخين أن الصيغة العربية لفزيو Viseu هى بازو الواردة فى المقرى ولكن سافدرا أثبت خطأ ذلك (انظر المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ١٧٤) .
Saavedra, *Estudio sobre la invasión de los Árabes en España* (Madrid, 1882) p. 182.

على شمال الأندلس حتى الدويرو ، ثم تقدموا بعد ذلك فى حذر فاستولوا على أشترقه وليون وسمورة ولدسماوسلمنقه وقورية . بل تذهب المراجع النصرانية إلى أنهم استرجعوا ماردة نفسها ، وتوسعوا نحو الشرق فاحتلوا سلدانيا وسيماقاس وشقوبية وأفيله وأوكا وأوسما وميراندا على نهر إبْرُه وسنيسيرو وأليسانكو على نهير ربوخه . وانحدرت حدود الاندلس الاسلامى الى الخط الممتد من قُلُمْرية على المنديجو الى قورية وطلبيرة وطليطلة على التاجة الى وادى الحجارة وتطيلة وبنبلونة فى الشمال الشرقى . وبهذا خسر المسلمون نحو ثلث ماافتتحوه من الأندلس بسبب هذه الخصومات القبلية من ناحية وبسبب المنازعات بين العرب والبربر من ناحية أخرى ، وكان لهذا أسوأ الأثر على مستقبل الاسلام فى الأندلس[1].

الخصومة بين العرب والبربر

ولم تقف نتائج هذه الثورة المشئومة عند ذلك الحد ، بل إنها خلفت فى نفوس العرب والبربر من الكراهية ماسيظل قائماً قروناً متوالية لاتكاد الأيام تمحوه . كانت هذه الحرب الضروس حرب فناء بين الجانبين ، فلما انهزم البربر فى إفريقية والأندلس ظلوا طوال القرون التالية يحسون الخوف من العرب والكراهية لهم ، وقد انتهى الأمر بعد قرابة ثلاثة قرون بانتصار البربر فى إفريقية واختفاء العرب من أفقها سادة وموجهين . وأما فى الأندلس فلم يقهر أحد من الجانبين الآخر ، لأن عودة الهجرة البربرية إلى الأندلس بعد قيام الأمارة الاموية قوّى جانب البربر من جديد وأعادهم إلى المقاومة ، فتقوت مراكزهم وأخذوا يناوئون العرب والأندلسيين مرة أخرى ، وسنرى ذلك بصورة واضحة أثناء الأزمة الكبيرة الأولى التى دامت طوال إمارات محمد والمنذر وعبد الله ، وسنرى أثر هذه الخصومة واضحاً بشكل خطر حاسم بعد سقوط الخلافة الأموية ، بل ستكون هذه العداوة بين العرب والبربر من أسباب سقوط الخلافة نفسها .

---

(١) انظر : Ballesteros : *Historia de España y su influencia en la historia Universal*, II, pp. 325 sqq. Dozy, *Recherches*, I. pp. 116 sqq.

يقول الرازى تعقيبا على هذه الحوادث التى ذكرناها : « ومن هذا وأشباهه قدمت العداوة بين بربر الوسط وعرب الأندلس ، وتوارثها الأبناء إلى يوم البعث ، فبالعرب غزوا فى بلادهم وبيأسهم سبيت ذراريهم وغنمت أموالهم حتى أدخلوا فى الاسلام واضطروا اليه قهراً . قال : فلما رجع أكثر العرب إلى بلادهم (فى) المشرق ، واستقر منهم الأقل (فى) الأندلس ممن أراد الجهاد ورغب فيه ، وكان البربر يومئذ أكثر منهم فيها لمجاورتهم بلادهم ، لم تزل عداوة الأديان والغلبة تتجدد بينهم[1] » وسنجد الحوادث تؤيد قالته تلك فى كل دور من أدوار تاريخ الأندلس .

* * *

هكذا أسدل الستار على هذه الثورة البربرية الكبرى التى شملت كل ناحية تجاور فيها العرب والبربر من حدود مصر إلى جليقية وحدود البرانس . انتهت بعد أن بددت من النفوس كل أمل فى امكان الامتزاج التام بين العرب والبربر فى افريقية وتكوين شعب واحد قوى منهم ، وبعد أن أصابت الأندلس الاسلامى فى مقتل . فقد كان من الممكن قبل هذه الثورة أن يستمر المسلمون فى مغازاة مالم يغزوه بعد من أنحاء الأندلس حتى يستولوا على شبه الجزيرة كلها، بفضل جموع البربر المهاجرة . أما الآن ، وقد عادت هذه الجموع البربرية إلى بلادها، وبعد أن هلك منها بسيوف العرب من هلك ، وبعد أن امتلأت النفوس عداوة وسخطا ، فلم يعد من الميسور تعمير شبه الجزيرة كله بالمسلمين . وانفسح أمام الأسبان النصارى مجال النمو ، وتجددت آمالهم فى استعادة البلاد . وليس يخفى على أحد أن الأندلس الاسلامى إنما أتى من الشمال والغرب — حيث هاجر البربر — ولم يؤت من الشمال الشرقى حيث ظلت جماعات العرب والبربر مقيمة فى اقليم سرقسطة .

---

(١) روى ذلك صاحب فتح الأندلس ، ص ٣٢

مراجع عربيـــة

— ابن الابار ، الحلة السيراء ، مقتطفات نشرها دوزى فى كتاب

Notices sur quelques manuscrits arabes, Leyden, 1847-1851, pp. 30-260.

— ابن الاثير ، الـكامل فى التاريخ ، طبعة القاهرة ، الجزء الخامس .

— ابن بسام ، كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة (طبعة جامعة فؤاد الأول) ج ١ سنة ١٩٣٩ ، ج ٢ سنة ١٩٤٠

— ابن بشكوال ، كتاب الصلة ، طبعة كوديرا ، مدريد ١٨٨٣

— ابن حيان ، كتاب المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس ، الجزء الصغير الذى طبعه ملـكور أفنتونيا ، باريس ١٩٣٧

— ابن الخطيب ، كتاب الاحاطة ، طبعة القاهرة سنة ١٢٤٧ ﻫ

— ابن خلدون ، العبر ، طبعة دى سلين سنة ١٨٤٧ — ١٨٥١ م .

— ابن عبد الحـكم ، فتوح مصر والمغرب والأندلس ، طبعة G. Torrey ، يل ١٩٢٢

— ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب، طبعة دوزى، ليدن ١٨٤٨ — ١٨٥١

— ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، طبعة كوديرا ، مدريد ١٨٩٢

— ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، طبعة جايانجوس وسافدرا وكوديرا ، مدريد سنة ١٨٦٨

— الأخبار المجموعة ، مجهول المؤلف ، نشره لافوينتى اى الـكانترا وترجمه الى الاسبانية باسم *Crónica anónima del sigle XI* ، مدريد ١٨٦٧

— فتح الأندلس ، مجهول المؤلف أيضاً ، وعنوانه الـكامل : «كتاب فيه سبب ذكر فتح الأندلس وامرائها . نشره Joaqin de Gonzàlez وترجمه الى الاسبانية تحت عنوان : *Historia de la Conquista de España ; codice aràbigo del siglo XII* مدريد سنة ١٨٨٩

— المقرى ، نفح الطيب ، طبعة دوزى ودوجا وكريل ورايت ، ليدن ١٨٥٥ — ١٨٦١

— النويرى ، نهاية الأرب ، الجزء ٢٢ الخاص بتاريخ افريقية ، الجزء ٢١ الخاص بتاريخ الأندلس ، نشرهما وعلق عليهما وترجمهما الى الاسبانية *Mariano Gaspar Rimero* مدريد سنة ١٩١٧

— الرسالة الشريفية الى الاقطار الاندلسية . فقرة من تاريخ الاندلس مجهولة الاصل والمؤلف نشرها ريبيرا كذيل لافتتاح الاندلس لابن القوطية .

مراجع أوروبية

BALLESTEROS, ANTONIO Y BARRETA: *Historia de España y su influencia en la Historia Universal.* Barcelona 1920 Vol. II.

DOZY, *Histoire des musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquête de l'Andalousie par les Almoravides*, éd. E LÉVI-PROVENÇAL, Leyde 1932 vol. I.

DOZY, *Recherches sur l'histoire et la lettérature des Arabes d'Espagne pendant le moyen-âge*, 3e éd. Leyde 1881. vol. I.

FOURNEL, HENRI, *Etude sur la Conquête de l'Afrique par les arabes.* 2 vols. Paris 1875.

GAUTIER, E. F.: *Le Passé de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs.* Paris 1937.

GONGÁLEZ PALENCIA, *Historia de la España Musulmana*, Barcelona, Buenos—Aires, 32 éd. 1932.

JULIEN, CH.-ANDRÉ, *Histoire de l'Afrique du Nord.* Paris, 1931.

LA FUENTE Y ALCÀNTARA, *Cronolgía de los Gobernadores de España.*

وهو ملحق لترجمة للاخبار المجموعة المذكورة آنفا ، ص ٢٤٠ — ٢٤٢

E. LÉVI-PROVENÇAL: *Histoire de l'Espagne Musulmane, t. I.* Le Caire 1944.

RASIS: *La Crónica del Moro Raris:*

وهو جزء من الترجمة الأسبانية القديمة لتاريخ أحمد الرازى نشرها مع مقدمة عن الرازى وتاريخه PASCUAL DE GAYANGOS وصدرت فى الجزء الثامن من منشورات المجمع الأسبانى الملكى للتاريخ *Memorias de la Real Academia de la Historia.* Madrid 1852.

SAAVEDRA, EDUARDO *Estudio sobre la invasíon de los árabes en España*, Madrid, 1892.

SIMONET, *Historia de los mozárbes de España*, Madrid 1897-1903.

WÜSTEN FELD, F.: Die Statthalter von Aegypten zur zeit der Chalifen. Erste Abteilung 1875.

فى المجلد العشرين من

Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen.

تم طبع هذه المجلة فى عهد حضرة صاحب الجلالة
الملك "فاروق الأول" بمطبعة جامعة فؤاد الأول
فى ١٨ رمضان سنة ١٣٦٧

محمد زكى خليل
مدير مطبعة جامعة فؤاد الأول

(مطبعة جامعة فؤاد الأول ٦٠٧-١٩٤٧-٥٠٠)

